المُهاجِرَة

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصورى

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى - الحي الأول- مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2016 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2016 - 22039

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 09 - 1

بشرى بوشارب

رواية

المُهاجِرَة

٢٠١٧

شكر وعرفان

وطني أنتِ وحُضنكِ ملجأي...«أمي» شكرًا لأنكِ كذلك.

جميلُكَ دَيُن طوال حياتي لأنك رافقتني... «والدي».

مثلث أضلاعه أنتم الثلاثة أرتكز عليها... «إخوتي».

أهدي لروحك الورد والريحان...»خالتي الضاوية».

أستاذة أناملها تحكي قصة فنان، شكرًا لدعمك... «مريم».

لكم جميعًا، ولكل من قرأ «المهاجرة».

بشرى

الفصل الأول

فعلا قتلت المحبة والوفاء والطمأنينة فى ظروف قاسية ومؤلمة، قد يكون المرض أحيانا أو الفقر أو الخيانة وحتى... الفراق.

لكن فى قصة هذه الحرب فرقت وشردت عائلات وأسر. من بينها حكاية هذه العائلة الصغيرة التى حكم على سعادتها بالإعدام، ولكن يبقى قضاء الله وقدره أقوى، وأين نحن من هذا الأخير غير التسليم به؟!

ترعرعت "سلمى" فى بيت ميسور الحال من عائلة عراقية الأصل، وكبرت بين أب وأم مثقفين وأخ وحيد، أب يُدرس فى الجامعة والوالدة ذات جذور أصيلة من زمن الباشوات والأعيان، ظروف جعلت سلمى تواصل دراستها وتتفوق فيها بما يناسب مستوى عائلتها وثقافة والديها، ناهيك عن التربية والتعامل اللذين كانا مألوفين فى الأسرة.

من هذه النقطة أبدأ فى سرد رواية أمى ووالدي، أو بالأحرى قصتى أنا "أسامة"، حكاية حرب بين طرفين دفعت أنا ثمنها، حرب جّرت آثارها وكنا نحن الضحايا.

*****

قرر جدى لأمى الرحيل إلى الكويت وبحوزته عقد العمل الذى طال انتظاره...

تحققت أمنيته بعدما راسل الجامعة الكويتية للالتحاق بمنصبه كأستاذ جامعى بعد العديد من المحاولات فى الحصول على تأشيرة القبول.

تحقق حلم "كمال" الذى سيبدأ حياة جديدة، إلى مصير جديد يخبئ له كثيرًا من المفاجآت.

حينها أخبر زوجته "حنان" بعقد العمل الذى حصل عليه بعد طول انتظار، وأنهم فى وقت قصير سيرحلون إلى الكويت لتبدأ حياة أخرى يتوقع منها الكثير، رحبت هذه الأخيرة بالفكرة وسعادتها لا توصف خاصة وقد كانت تنتظر هذه الفرصة منذ زمن طويل.. وتعبيرا منها عن أفكار وعقلية العائلات المرموقة وأن ولديها لا يمكن أن تستمر حياتهما فى أوضاع عادية، "لغوندي" عائلة عريقة من الجدّ إلى الأحفاد ويمكن من خلال هذا التفكير أن نتصوّر عقلية وأفكار حنان الطبقية والتى ترفض أن تعيش ضمن ظروف عادية، وإنما تريد عيشا رغيدا حسب رأيها... والكلمة المناسبة لذلك الوصف هي: التميز الطبقي.

أما عن ابنتها "سلمى"، فيمكن ربط أفكارها بطريقة معيشتها... إنسانة عادية محبة للخير غير مبالية بأفكار والدتها ويظهر ذلك من خلال تصرفاتها العفوية والتلقائية مع أقاربها أو أصدقائها ورغم معارضتها الشديدة فى بعض الأحيان لسلوكيات والدتها التى تنم عن التكبر والاندفاع نحو الطبقية الاجتماعية بعفوية وتلقائية وعدم الرضا عن رد فعل والدها السلبى تجاه أفعال أمها؛ إلا أنها لا تجد طريقة لردعها سوى الصمت فى أغلب الأحيان والاستسلام.

أما ولدهما "سلام" فكان له عالم خاص به، عالم يرسم له صورة أو جنة يريد أن يذهب إليها دون أن يفكر فى ماضيه أو مستقبله من خلال تصوراته الخيالية، يريد الرحيل لتحقيق أمنيته فى التمتع بملذات الحياة من ماديات ورخاء فى الدول اللاتينية، بلدان تؤمن بفكرة التحرر لدرجة أنها تدخل ضمن مبادئ الحضارة فيها.

هكذا كانت تشكيلة العائلة، نتصور يومياتها فى بيت جميل يتكون من والدين مثقفين وولدين لكل تفكيره، حتى العلاقة بين الأفراد كانت ثنائية... علاقة الفتاة بأبيها أقوى من علاقتها بأمها فقد كان الأب يحترم أفكار سلمى لدرجة كبيرة. بينما علاقة الأم بابنها أقوى من علاقتها "بسلمى" لإعجابها الشديد بأفكار ومعتقدات "سلام"، هذه الأخيرة التى كانت تميل إلى الكبرياء والطبقية التى تقدسهما.

وكانت "نعم" و"أحسنت يا حبيبي" و"أنت الوحيد الذى يفرحنى فى هذا المنزل" أكثر الجمل التى تتردد دائما على لسان حنان استحسانا لسلوكيات ولدها والتى كانت تزيد من عجرفته وتطلق العنان لأحلامه وأوهامه كما كانت تسميها سلمى للوصول إلى مبتغاه.

*****

صيف ١٩٨٠

رحلت العائلة إلى الكويت وكل له أمنياته الخاصة.. ويعتبر الرحلة نقطة انطلاق حقيقية ليحقّق أحلاما وأمانى متفرقة لا تشبه الواحدة الأخرى، إلا سلمى... رحلت والحزن يسكنها بعد أن ودعت جميع معارفها وأصدقائها، خاصة أنها ستنتقل إلى الكويت فى مرحلة حساسة جدا وهى السنة التى تحصلت فيها على شهادة الثانوية العامة، فقد كانت تنوى الكثير فى وطنها

وبين أهلها ولكن القدر هو الوحيد الذى يقرر مصير كل إنسان.

كان أول صيف لعائلة "لغوندي" فى الكويت بعد أن استقرت وحاولت الاندماج ضمن مجتمع جديد وتقاليد مختلفة، فكان الأمر صعبا بالنسبة لسلمى على عكس أمها وشقيقها اللذان اندمجا بسرعة واستطاعت حنان أن تجد العائلات الراقية التى طالما كانت تبحث عنها.

توالت الأيام.. مازالت حنان تحاول ربط العلاقات والدخول فى عالم الطبقة الراقية، أما سلمى فلم تنس يوما أرضها، أهلها وجميع الذين ترعرعت معهم وجمعتهم الذكريات بحلوها ومرّها، وقضت صيفها الأول فى الكويت بين محاولة التأقلم فى وطن غير وطنها والعيش بين دفاتر سنوات الماضى التى لا تفارقها لربطه بالمستقبل القادم الذى سيكون ناجحا للافتخار بماضيها حسب رأيها، أكيد والذى كان لا يعجب والدتها والتى لم توافقها يوما. حتى ولو على أبسط الأشياء.

*****

بدأت السنة الدراسية ورافقها موسم جديد تنتظر منه عائلة كمال الكثير، وقد كان أول يوم لسلمى رفقة والدها باعتبارها تدرس بنفس الجامعة التى يعمل فيها بعد أن ودعته وتركها أمام مدرجها وهى تحاول أن تخطو أول خطوة لعام جديد وفى بلد غير بلدها مع تنهيدة طويلة عسى أن تزيل التوتر عنها.

كان المدرج وكأنه قاعة سينما، ضوضاء وصخب لا يسمع الواحد الآخر، جلست فى أول مقعد وجدته شاغرا تنظر بخجل وتتمنى ألا يلاحظها أحد من الطلاب، بينما هى جالسة إذ بشخص يخاطبها ودون أن تنتبه له فاستدارت بارتباك:

- لا تندهشي؛ فهذه حال الجامعة كل فى شأن، كانت فتاة مستقيمة القامة ذات شعر طويل أسود.

- لست مندهشة ولكن أول يوم وأول سنة تعرفين... (أجابتها سلمى بخجل قائلة)

فردت الفتاة: أنت....؟!

قاطعتها سلمى بعد أن فهمت سؤالها حتى قبل أن تكمله: أنا عراقية.

- تشرفنا أنا "خلود" كويتية أكيد وأول زميلة لك.

مدت يدها لسلمى وتصافحتا...

- كانت خلود أعز صديقة لوالدتى هدية من الله، وضعها القدر فى طريقها (قالها أسامة وهو يسرد قصة والدته).

وهكذا تمكنت سلمى من بدء حياة دراسية أولها كان سهلا بربط علاقات تتمنى أن تكون بسيطة وعفوية فى نطاق واسع يجمع الثقافة والحضارة وحتى التسلية والمزاح لكن فى إطار التواضع، يجمع بين جميع الطبقات دون تمييز فقط لقمع فكرة الطبقية التى ولدت وفتحت عيناها عليها تحت جناح والدتها حنان والتى كان هذا شعارها الوحيد وكان له وقع على زوجها ولو بالغصب وعلى ولدها أسامة بالوراثة.

*****

توالت الأيام والأشهر واندمجت سلمى مع زملائها فى الدراسة وخاصة خلود التى اعتبرتها صديقتها الحميمة حيث توطدت العلاقة واتسعت إلى حد أن الزيارات أصبحت عائلية وتوطدت بينهم أكيد وبتشجيع من حنان باعتبار أن خلود تنتمى لعائلة عريقة ومرموقة فى الكويت كما أنها وحيدة أبويها..

استمرت الحياة فى هذه العائلة كل فى مشاغله واهتماماته... فسلمى تقضى معظم وقتها بين الجامعة والمحاضرات رفقة خلود أو الخروج برفقتها سواء إلى منزل إحداهما أو للتعرف على أماكن فى الكويت، وقد كانت عديدة. وهذا كله بفضل خلود التى أخرجت سلمى من وحدتها وكانت لها نعم الرفيقة؛ فقد كانت دائما تنتهز الفرصة بأخذها إلى المتحف الوطنى أو أبراج الكويت المستوحاة من مرشة ماء الورد العربية أو برج المواصلات وبرج التحرير، وكانت الفتاتان تقضيان أجمل الأوقات سواء برفقة عائلتها أو فى إطار الرحلات.

– وهذا يا عزيزتى قصر السيف العتيق دُشن عام ١٨٩٦ وزُين بفسيفساء من التراث الإسلامي، ناهيك عن المتحف الوطنى ومتحف طارق فى حى الجابرية (قالت خلود).

كان ذلك فى إحدى المنتزهات التى كانت تصطحب فيها سلمى حتى لا تشعر بالغربة وبأنها وسط أهلها، وكانت هذه الأخيرة لا تجد عبارات الامتنان والشكر. إلا أن خلود كانت تقاطعها دائما بأنها لا تعتبر ما تفعله جميلا وهى كذلك تقضى برفقتها أجمل الأوقات التى ستحتفظان بها طوال العمر.

أما حنان فتعيش يومياتها المرتبطة بالمناسبات والزيارات والعلاقات الاجتماعية التى تعتبرها الأكسجين والهواء الذى تتنفسه، وتحرّم على نفسها العلاقات المتواضعة البسيطة والتى تعتبر أن نتيجتها العدم وأنها انحدار لاسم عائلتها ومضيعة للوقت.

هكذا كانت حياة الترف كما تسميها هى والمستوى المادى الذى كانت تعيشه حتى ولو كان أكبر من مستواها، وأفكار الطبقية التى تعيشها وسيطرت على عقلها ولو كانت لا تحمل حتى فكرة إنسانية، المهم المحافظة على الإرث

العائلى وهو الاسم بغض النظر عن الوطن والأرض والعادات والتقاليد، وأن تكون مجموعتها من الأقلية وهى النخبة. نخبة الطبقة الراقية.

أما حياة كمال، فكانت مقسومة بين العمل صباحا وإشباع رغبات حنان تلك المرأة المتسلطة وذلك بالتودد لعائلات راقية والاندماج فى مجتمع تود أن تضع فيه بصمتها وأن ترسم لنفسها حيزا وحدودا لا يمكن لأحد من غير المرغوبين فيهم أن يدخلوه. ولا يجب أن تخرج هى وعائلتها عن هذا الحيز. وهذا ما كان يميز شخصية كمال السلبية المنطوية تحت أوامر زوجته، الأمر الذى يؤلم سلمى وهى ترى صورة والدها المغلوب على أمره أمام عجرفة أمها، وعدم اهتمام سلام بما كان يجرى خاصة وأنه الابن المدلل لدى أمه، والذى زرعت فيه الأنانية والبحت على الثروة بأى طريقة والتوجه إلى التفتح.

فكان حصاد ما زرعته فى ابنها شخص كأنه آلة ممتلئة بأفكار تسيّرها، وإلا فهو معطل لا يعمل فى غياب كلماته المفضلة وتعويضها بكلمات يعتبرها غريبة ومعانٍ أغرب كلما نصحته سلمى لخوفها على أخيها الوحيد الذى يسلك بأفكاره هذه طريق الضياع.

معانٍ لا يمكن أن يصرّفها فى كتاب النحو خاصته، ولا أن يشرحها فى قاموسه كما كان يقول دائما ساخرا من كلام أخته التواضع والشخص العصامى الذى يبنى نفسه بنفسه، ومساعدة الناس من أجل المساعدة وليس مقابل مصالح معينة كلها أمور لا تعنيه، وكمال يقابل هذه النقاشات بصمت وسلبية، وسلمى وحدها تعارك لتمحو هذه الأفكار من رأس حنان وسلام.

كان يفتخر بابنته لكن فى صمت يتألم وهو يرى تهديدات أمها لها بوقفها عن الدراسة بسبب الأفكار المغروسة فى عقلها، يحترق وهو يتأمل

الضياع الذى يسبح فيه سلام ويعرف أنه سيغرق يوما لامحالة، لكن ما بيده حيلة فكفته دائما مرتفعة تتأرجح أمام كفة حنان التى تبقى دائما مستقرة لأنها الأقوى.

حياة سلام كانت ممزقة بين العيش مع شلة الأصدقاء الذين يرافقهم بلا هدف سوى للمتعة، وأفكاره الحالمة نحو الرحيل إلى إحدى الدول اللاتينية للعمل خاصة وانه يحمل شهادة فى السياحة تخصص فندقة، مع إصرار والده عليه للعمل بالكويت إلا انه كان يرفض الفكرة وبتشجيع من أمه التى كانت توافقه أفكاره دون أن تستمع لرأى زوجها.

وهدا ما كان يؤلم سلمى التى كانت تلزم الصمت وهى ترى ما يجرى بين أفراد عائلتها وعزاءها الوحيد كان حب والدها وتشجيعه ووقوفه لجانبها دوما، حتى إنه كان يقف أحيانا فى وجه زوجته عندما يراها تضغط كثيرا على سلمى رغم أن لا حول ولا قوة له، ومع هذا كان موقفه يفرحها كثيرا.

ومن جهة أخرى، خلود صديقتها الوحيدة كاتمة أسرارها وتعرف كل شيء عن عائلتها وكانت تخفف عنها الكثير من آلامها وتجرّها نحو الأمام أحيانا عندما ترى اليأس سيطر عليها.

كانت السيدة "عايدة" والدة خلود من أطيب النساء وأحن الأمهات ترحب دائما بسلمى وتعاملها بلطف، خاصة وأنها كانت على دراية بظروفها إضافة إلى أنها تعرف جيدا حنان من خلال اللقاءات التى جمعتهما فى عدة مناسبات. "أم" كانت تحلم بها سلمى فزياراتها المتكررة لمنزل خلود كانت تسعدها وترفع من معنوياتها وأن الله وهب لها هذه الصديقة وعائلتها.

السيدة عايدة أحن إنسانة وعمى "حسين" - كما تناديه سلمى- من أشهم وأطيب الرجال، ولكن الحسرة لا تفارقها كلما قارنت بين العائلتين.

فهى لا تلتقى بأفراد عائلتها سوى على العشاء، وفى بعض الأحيان حتى هذا الأخير يندثر وراء المناسبات التى يحضرها كمال رفقة زوجته أو عشاء العمل رفقة زملاء العمل. منزل وكأنه فندق كل واحد فى غرفته يبحث عن أحلامه الضائعة.

عام ١٩٨٤

أربع سنوات مرت... وكأنها أيام لم تلاحظ العائلة مرورها فى خضم الأحداث التى مرت بها، أعمال كمال، الدراسة الجامعية التى فتحت لسلمى الكثير من الآمال للالتحاق بعالم الشغل. لكن وقبل كل هذا فلا بد أن يكون احتفال بهذا النجاح، نجاح الدراسة وحتى الصداقة كما قالت الست عايدة.

كانت هدية العائلتين لابنتيهما رحلة إلى لبنان، وهذا باقتراح من العم حسين باعتباره يملك وكالة للأسفار وكانت أكبر مفاجأة لسلمى التى لم تتوقع كل هذا الكرم من هذه العائلة، أكيد وكانت موافقة حنان هى الأولى بعد أن أخبرتهم سلمى وحتى قبل أن يبدى كمال رأيه كعادته. وبدأت الفتاتان فى تجهيز نفسيهما لخوض هذه الرحلة الرائعة، رحلة العمر كما سمتها خلود.

أول رحلة إلى لبنان بعيدا عن الوطن وبعيدا عن الأهل...

لكن العيش فى الكويت واللقاء بخلود أنسى سلمى الغربة وبعدها عن الوطن، ألوان لأعلام مختلفة ترفرف فى سماء كل دولة عربية وحجارة فى الأرض ترسم حدودا بين الأشخاص لتتكون مجتمعات. لكنها لن تكون عائقا أمام دين واحد ودم واحد ولو اختلفت العادات والتقاليد. كانت مقولة سلمى دائما لخلود بعد أن عاشت فى الكويت ولاحظت كرمهم ونخوتهم وهذا ما زاد من حب وتعلق خلود بها فقد كانت تعتبرها الأخت التى حرمت منها.

كانت أول سفرية للفتاتين بدون أهلهما وقد أوصى والد خلود معارفه لاستقبالهما. وعند وصولهما لمطار لبنان وجدت خلود صديق والدها بانتظارهما حيث كان يعمل هناك.

وفى الطريق من المطار إلى الفندق لم تتكلم الفتاتين ولم تنطقا ببنت شفه بل أطلقتا العنان لأعينهما ينظران فى جمال لبنان وجبالها الرائعة، حتى وصلتا إلى الفندق حيث حظيتا باستقبال رائع. وهذا كان أول يوم للبنتين للخروج وتسلق جبال هذا البلد الرائع والتمتع بمناظرها بعد أن ارتاحتا بالغرفة ووضبتا أمتعتهما.

لبنان يا وطن الأبطال ويا زهرة فوق التلال، هكذا كانت تردد سلمى كلماتها وهى ترتشف فنجان الشاى وتتمتع بمناظرها الخلابة وخلود معها على نفس الطاولة تتصفح المجلات. إذ بصوت خشن رجالى ينادى ويخاطب خلود من غير استئذان أو حتى سلام.

- لا أصدق خلود فى لبنان، يا للصدفة لم نلتق فى الكويت لأجدك هنا!؟

رفعت خلود رأسها متفاجئة وعندما رأت من يخاطبها أجابت بصوت قوى ممتلئ بالفرحة والاستغراب:

- "صالح" كيف حالك، منذ متى؟!...
- قاطعها قائلا: حوالى سنة لم أرك ولم أقابل عمى حسين والست عايدة وحتى عندما أراكم فنحن لا نطيل الحديث أبدا بسبب مشاغلى التى لا تنتهى واليوم تجمعنا الصدفة خارج الديار لا أصدق!.
- جئت فى رحلة أو هروب سمها ما شئت هدية تخرجى وأنا فى حالة نقاهة. وفجأة انتبهت...
- عفوا، سلمى أعرفك هذا قريبنا وصديق مقرب، إنه صالح والده رحمه

الله ووالدى من أعز الأصدقاء وبينهم قرابة بعيدة جدا لكن بحكم الصداقة القوية فهو قريبي، أمزح فقط (مستديرة نحو صالح).

- لا بأس تشرفت بمعرفتك ومن حسن ظنى أننا تقابلنا قبل أن أعود إلى الديار (أجابها مبتسما).
- ومتى ستعود إلى الكويت ؟
- بعد أسبوع، وأنت رحلتك ستطول أم...؟
- خمسة عشر يوما، من حسن حظنا أننا وجدناك هنا.
- لا من حسن حظى أنا.

كل هذا الحوار كان أمام سلمى وهى تتأمّل مبتسمة، وبعدها قررا أن يلتقيا فى الغد، حيث عرض صالح أن يأخذهما لأماكن جميلة تعرف عليها خلال عمله وبحكم صداقته مع لبنانيين وكويتيين مقيمين بلبنان. وهكذا وجدت الفتاتان مرشدا سياحيا كما أطلقت عليه خلود طيلة أسبوع، أين كان يحاول فى كل فرصة أخذهما لأماكن سياحية رائعة.

وفعلا قرر صالح أخذ الفتاتين إلى أماكن رائعة وقد وعدهما بذلك منتهزا فرصة لقاءه بخلود التى لم يرها منذ فترة طويلة، كانت الأماكن رائعة ومناطق التزلج أجمل وهذا ما كان يميز لبنان. فقد حلق بهما صالح بين الأرز والزعرور واللقلوق وقناة باكيش.

- صالح: أحسنتما باختياركما هذا الشهر لزيارة لبنان وقد كان شهر يناير أين تكتظ لبنان بالسياح فى الفترة الممتدة من ديسمبر إلى شهر أبريل حيث يزورها حوالى الأربع ألاف سائح يوميا كما توجد بها أربعة عشرة حلبة تزلج، وقد زرت لبنان عدة مرات وأعرف الأماكن جيدا لهذا سنذهب إلى أماكن رائعة للتمتع فعلا بمناظرها.

- وهذا من حسن حظنا أليس كذلك يا عزيزتى وهى تنظر إلى سلمى (أجابته خلود وهى مبتسمة).

لم يكن أحد منهم لينتظر هذه الرحلة التى مرت وكأنها حلم تمنوا أن يتكرر مرة أخرى علّ القدر يهديهم رحلة كهذه وفى مناسبة أخرى. فمن خلق هذه الصدفة قادر على أن يخلق مثلها فى أى وقت ولأى سبب. وخلال تلك الأيام التى قضاها صالح رفقة الفتاتين لاحظ رزانة وسكوت سلمى، تأملها وتمعنها كثيرا دون تعليق أو كثرة حديث وكان جوابها دائما قدر السؤال.

انقضى الأسبوع وحان موعد العودة إلى الوطن- كما قال صالح- وقد اعتراه شوق كبير للكويت والأهل وضرب موعدا مع خلود للقائها ولقاء عائلتها خاصة عمى حسين الذى يعتبره كوالده.

أما خلود وسلمى فقد بقى لهما أسبوع آخر وأخير وقد تعودتا على هواء لبنان وجباله، رحيق أزهاره وتغريد أهله أهل الفن والكرم كما لقبتهم خلود وقد تعودتا على صالح مرافقا لهما. لتأخذ الأيام الأخيرة سبيلها للرحيل والعودة إلى الكويت وتدخل ضمن أجندة الذكريات الرائعة التى لا تنسى والقليلة فى حياتنا سرقت من أيام متتالية تشبه الواحدة اليوم الذى سبقها. لتبقى محفورة فى كتاب نتصفحه كلّما اشتقنا لأيّام لبنان.

*****

هكذا عادت سلمى وخلود إلى الوطن، الذى أصبح مشتركا بين الاثنتين يضمهما ويضم ذكريات عمر الشباب، تاركا بصمة طُبعت فى قلب المغترب المتألم والعاشق. عادت الفتاتان حاملتين أخبار لبنان وهداياها، وكل واحدة تروى ما رأته وعرفته عن لبنان.

وبالرغم من أن ساعات فقط فصلت بين خلود وسلمى على فراقهما، غير أن العادة نفسها يجب أن يكون الحديث فى الهاتف قبل النوم، تسامرتا من خلاله عن رد فعل العائلة وأيام لبنان أكيد مع قليل من المزاح الذى كان يفرض نفسه دائما خاصة بالنسبة لفتاتين بعمرهما هذا.

وفى تلك الليلة بالذات وعند الساعة العاشرة ليلا عند ما خلدت خلود إلى فراشها إذ بهاتفها يرن، من المتصل فى هذه الساعة ؟ صالح! غريبا ليس من عادته، (كل هذا وخلود تكلم نفسها.)

- أهلا صالح، بعد أن ردت عليه
- مرحبا خلود، الحمد لله على سلامتك عفوا ألف مرة اتصلت بك بعد تردد وخجل كبيرين، إننى فى دوامة ولا أستطيع التحدث إلا معك أعرف أنك تستغربين موقفى هذا ولكن أنوى زيارتكم غدا والتحدث إليك وجها لوجه بعد إذنك.
- حسنا صالح لا مشكلة، أنتظرك إن شاء الله.
- شكرا، وآسف على إزعاجك تصبحين على خير خلود.

استغربت خلود مكالمة صالح المفاجئة فى مثل هذا الوقت والفضول كان يفرض نفسه وقد ترك لها علامات استفهام خاصة لهجته التى كان يتحدث بها مع أنه يعرف بأنه أول يوم لخلود فى الكويت بعد رجوعها من لبنان.

وكانت ليلة صالح طويلة ينتظر بزوغ الشمس منبئة عن قدوم يوم جديد يأمل منه الكثير.

تشرق شمس جديدة على سماء الكويت ولكن بعد ليل طويل وكأنها ليال لا نهاية لها على صالح ولابد لليل أن ينجلى ويترك المجال للنهار ليروى حكايات الناس وقصصهم.

دُق باب عمى حسين فى وقت مبكر وقد كانت دقات شخص خجول متردد.، حينها كانت الست عايدة فى المطبخ وزوجها فى البستان، أما خلود فكانت لا تزال نائمة فى غرفتها من تعب السفر.

- أهلا مرحبا، كيف حالك، أين أنت؟! بالحضن يا عزيزى (عمى حسين مخاطبا صالح).

فهمت الست عايدة أن الزائر هو صالح، فدائما تكون نفس العبارات ونفس اللهجة التى يقابل بها حسين صالح لأنه يعتبره ابنه الذى لم ينجبه. وبعد أن رحبت به الست عايدة جلس صالح شاحب اللون مرتبكا يجيب على قدر السؤال، وقد لاحظ حسين وعايدة صمته وخجله.

- ما بالك يا ولدي؟ ولماذا أنت متغير هكذا؟

و ما هى إلا دقيقة حتى دخلت خلود وقاطعت والدها قائلة:

- صباح الخير صالح، كيف حالك؟

- شكرا، الحمد لله على سلامتك. أنا متأسف كثيرا بخصوص الإزعاج الذى سببته لكم.

وطأطأ رأسه والكل ينتظر سبب قدومه متعجبين لحالته.

- جئت اليوم وأنا متوتر وحالتى تدل على ذلك، أنا أعتبركم بمثابة عائلتى وأرجو ألا تقاطعونى حتى أنهى كلامى وبعدها أسمع رأيكم خاصة عمى حسين، والدى الذى عوضنى كل خير بعد وفاة أبي.

فى الحقيقة منذ سنوات أعمل خارج الكويت ولا أستطيع حتى التنفس أو الاسترخاء، حتى شاءت الأقدار أن تجمعنى بخلود خلال رحلتها للبنان، وكم سعدت بلقائها بعد اشتياق كبير كنت أحمله لكم، وكانت نهاية رحلتى أجمل لأننى نسيت معها هى وسلمى تعب العمل الذى قضيته والذى دام حوالى السنة.

وبصراحة سبب مجيء إلى هنا هو الآنسة سلمى، فخلال هذه الفترة وعند لقاء بها تولد شعور بداخلي، ومقابلتى لها كان لها وقع كبير على تفكيري. ميزتُ فيها الفتاة المؤدبة الخجولة، المتواضعة والمثقفة لطيفة فى تعبيرها ولبقة فى ردها.

أعرف أنكم تفاجئتم لكن منذ قدومى إلى الكويت وأنا أفكر فيها ولم تفارق مخيلتى ولو للحظة. تحولت إلى مراهق حتى أنا لم أعد أعرف نفسي، ولهذا قررت أن أطلَق العزوبة وأسلك الطريق نحو بناء أسرة منذ رؤيتى للآنسة سلمى.

ربما تسرعت فى قرارى خاصة أننى كنت أرفض الزواج رغم إلحاحكم جميعا وأعرف أنكم مندهشون لرغبتى الملحة وهذا ما أراه الآن باد على وجوهكم. لكن اليوم جئت وأملى كبير فى أن تساعدينى يا خلود بالتحدث إلى سلمى وأعرف جيدا انك صديقتها الوحيدة وبمثابة أخت لها، ما رأيك؟....

- كان الجميع ينظر إلى صالح وهو يحدثهم، وهم فى حالة ذهول...
- صالح الذى طالما رفض فكرة الزواج ولم يقنعه أحد، حتى والده رحمه الله لم يقنعه توفى وهو متحسر لعدم رؤية أحفاده، جميعنا فشلنا وسلمى فى أسبوع غيرت نظرته للزواج لا أصدق ما أسمع...(خلود متحدثة بتعجب وهى تسخر من صالح فى نفس الوقت).

خجل صالح من كلام خلود وطأطأ رأسه معبرا عن ذلك، فسارعت الست عايدة قائلة عندما لاحظت توتر صالح: لا تهتم لكلامها إنها تمزح سنفرح بك عما قريب وهذا ما كنا ننتظره خاصة والدتك لتمحو عن قلبها الأحزان التى عاشتها.

وأكمل والد خلود:

– أجل يا بنى أروع خبر سمعته وأتمنى لك كل السعادة فأنت ابنى الذى لم أنجبه

– المهم يا صديقى سأتحدث مع سلمى وأحاول إقناعها، لكن لا تتأمل أن أخبرك شيئا عنها أو عن أهلها لا لشيء سوى أنها أسرار عائلية وسلمى الوحيدة التى يحق لها أن تخبرك، ولا تخف فهى تنحدر من عائلة عريقة وذات نسب والأهم من ذلك أنها محافظة ووالديها من أروع الأشخاص الذين قابلتهم. فقط أقول لك أنه فى حالة قبولها فقد اخترت الزوجة المناسبة سلمى من أروع البنات التى قابلتهن وستسعد معها وهى نفس الشيء فكما يقولون الطيبون للطيبات

*****

مرت الأيام وطال انتظار صالح وقلقه ولم تلتق خلود وسلمى منذ أن تفرقتا خلال عودتهما إلى الكويت وصالح الذى أصبح مراهقا كل تصرفاته تنم عن ذلك. ينتظر الجواب بفارغ الصبر ولا يعرف كيف يتصرف لكن لابد للقاء أن يكون بعد أن تواعدت الصديقتان.

كان المكان هادئ واللون الأخضر طاغ تسبح فيه عيناك على مد البصر. حيث كانت سلمى جالسة تائهة تنظر للعائلات وهى منتشرة فهناك من يرتشف الشاى والآخر يلعب مع أطفاله والكل مستمتع بعد أسبوع حافل بالحركة والعمل، وبينما خلود تتحدث مع سلمى عن أيامها التى قضتها بعد عودتها من لبنان والمستجدات التى حدثت وبدون سابق إنذار فاجأتها بسؤالها: صحيح ما رأيك بصالح؟

– صالح لا أدري، شخص التقيته لأسبوع واحد فماذا سيكون رأيي. وما هذا السؤال!؟

- دون مقدمات، صالح يريد التقدم لخطبتك، جاء وأخبرنا بذلك، أنا أيضا تفاجأت مثلك لكنه معجب بك وبشخصيتك وهو ينتظر إجابتك. ولن تندمى يا سلمى فهو من أطيب الناس، إنسان متعلم، عصامى ومتخلق لن تجدى شخصا مثله إضافة إلى ذلك فأنا من يقنعك وأنت تعرفيننى جيدا ومادام صالح من جهتى فلا تخافى أبدا.
- هل جننت يا خلود ما بالك؟ أولا لم أع ما تقولين ولم أفهم شيئا. وثانيا من أين ومنذ متى أعرفه حتى يعرض على الزواج. فلا يقاس عرضه هذا بأسبوع التقيته فيه وتحدثت معه بمواضيع سطحية وأنت شاهدت حواراتنا. إضافة إلى هذا فدراستى أنهيتها منذ شهر ولم استقر حتى فى التفكير بمستقبلى وماذا أنوى أن أفعل، أين أحلامنا ومشاريعنا، هه...، خلود لقد فاجأتنى أنت وليس صالح.
- ما بالك؟ سلمى أنا خلود أقرب الناس إليك، وتعرفين جيدا أننى ما دمت قد عرضت عليك هذا الموضوع، فكأنه عُرض علي، صحيح أننى لا أستغرب جوابك. لكن إذا كنت أنت من عرض على مثل هذه الخطوة وأقنعنى ومن ؟ سلمى بالذات رفيقة الدرب والأخت، سأفكر مليا فى الأمر، أرجوك يا عزيزتى فكرى جيدا، فصالح إنسان متواضع، متخلق تربينا فى بيت واحد، أعرف جيدا أنه سيفهمك ويحقق معك جميع طموحاتك. فقد كان رافضا لفكرة الزواج من الأصل لكن منذ أن رآك تغيَر حاله ولم أر صالح فى مثل هذه الحالة من قبل، وهو شاب جدى مسؤول وقد ميز فيك الفتاة الرزينة المتخلقة، وجاءك حسب الأصول ودق بابك ولم يفكر أبدا بل ما زاد فى إصراره إنك صديقتى وثقته بى كبيرة ولم يسأل عن شيء، فكيف لا تثقين أنت بى رفيقة

دربي، لا تدعى هذه الفرصة تفلت منك، فكرى جيدا بكلامى وأعطى لنفسك فرصة ولصالح كذلك.

وختمتا هذه الجلسة بابتسامة عريضة توحى بنهاية مفتوحة لا يعرف أحد نهايتها سوى الله...

فى تلك الليلة امتدت سلمى على فراشها تقرأ أو بمعنى أصح تتصفح كتاب ألف ليلة وليلة، لكن أين معانيه فعيناها فى كلمات الكتاب وفكرها يجول فى حديث خلود. وما هى إلا لحظات وقد رن هاتف المنزل، ذهبت سلمى لترد باعتبار أنها حارسة المنزل فأبواها فى ضيافة أحد الأصدقاء كالعادة، وسلام مع شلة المتسكعين أمثاله.

- ألو نعم، آه خلود....، ما بالك اليوم، لماذا تتصلين. لم أشتق إليك بعد
- سلمى، عزيزتى أما أنا فاشتقت إليك كثيرا، ودون أن أطيل عليك الكلام، صالح يريد أن يكلمك ما رأيك؟ (وهى تسرع فى كلامها حتى لا تترك المجال لسلمى)...
- خلود، أتكلم بجدية الآن ماذا دهاك ؟ كيف أتكلم مع الرجل وأنا...!، لم تتركى لى حتى الفرصة للتفكير..
- أعدك أنها ستكون المكالمة الأولى والأخيرة حتى تقرّرى لكن دعى له المجال فقط وبعدها أنت حرة فى اتخاد القرار الذى تجدينه مناسبا، أرجوك سلمى لا ترفضى طلبي...
- طيب، طيب لكن أنا أيضا لا أعدك ولن أعده بشيء، عليه سلفا.
- اتفقنا، سيتصل بك حالا أرجوك بعد أن تتحدثى معه فكرى مليا فى كلامه وأيضا أن من عرض عليك الموضوع هى خلود أختك التى تتمنى لك كل سعادة الدنيا، فهذا مصيرك وأتمنى أن تتقاسميه مع صالح

وهو فعلا صالح (وضحكت الاثنتين كختام لحوارهما).

وبعد أن أنهت خلود من مكالمتها وبعدها بخمس دقائق رن الهاتف، فأجابت سلمى للمرة الثانية

- ألو نعم...
- السلام عليكم آآآ....، عفوا أنا صالح، آنسة سلمى؟
- نعم، كيف حالك سيدي.
- قبل كل شيء عفوا على الإزعاج.
- لا عليك لقد أخبرتني خلود بأنك تود مكالمتي.
- شكرا على موافقتك وأعرف أن خلود سهلت على الدخول في مقدمات لا أعرف حتى ترتيب كلماتها، آنسة سلمى أكيد أنك متفاجئة من طلبي هذا، ونحن لا نعرف حتى بعضنا ولقاءنا دام أسبوعا واحدا ولم أتعرف حتى عليك وأنت كذلك، لكن يمكن أن أبدأ من موضوع آخر والانتقال بعدها لموضوعي فقط لأوضح نقطة معينة، ليس من الضروري والواجب أن يتعرف الزوجان على بعضهما قبل الزواج لفترة طويلة وتكون المعيار لنجاحه كما أنه من غير المعقول أن نتغاضى عن نجاح حياة أجدادنا وآباءنا والذين كانت قاعدة زواجهم مشتركة دامت عشرتهم دون عوائق. إعجابي بك كان في لبنان ومن خلال كلام خلود عنك، وبما أنني أعرف خلود جيدا، أخلاقها وتربيتها وحتى طريقة انتقاء صديقاتها، والمحير أن حبها لك كبير وتعتبرك أختها وهذا استثناء بالنسبة لخلود كما أنك استثناء في حياتي ولا أعرف كيف! (كل هذا وسلمى تنصت إليه).الشيء الوحيد الذي أعدك به أنني لن أعارضك في أي شيء ترغبين فيه أن تكملي

دراستك أو أن تدخلى مجال الشغل، أو تحقيق أحلامك وإثبات ذاتك بل سأساعدك وأشجعك فقط أريد الزوجة الصالحة التى تعيننى وأن نتقاسم مشاغل الحياة معا بفرحها وحزنها، لم أبحث يوما عن شريكة حياتى صحيح أننى رسمت لها صورة بمواصفات معينة لكن لم أعر الأمر اهتمام وسبحت فى عالم الشغل ولم آبه يوما لحياتى الشخصية رغم إلحاح جميع المقربين منى لكن مند أن رأيتك وأنا أعيش حالة من الضياع وأردت بشدة أن أستقر وعرفت أنه حان الوقت لأؤسس عائلة وأحسست أنك أنت من سيسعدنى ويساعدنى على ذلك، كما أننى أعدك ووعدى حق على بأننى سأكون الزوج الوفى الذى يمنحك الوطن والعائلة، أعرف أنك رافضة للفكرة من أساسها كما أخبرتنى خلود على الأقل فى الوقت الحالى لكن إذا سمحت فكرى فى الموضوع ولو من بابه الواسع وفكرى فى كلامي، وإذا تقبلت الموضوع مبدئيا اسألى عنى وعن عائلتى وخلود تدلك ثقى بها، فقط أريد جوابا وسأقبل بالاحتمالين.

- لا أعرف سيد صالح (بعد أن أنهى صالح كلامه وصمت الاثنين للحظات)، أنا لم أفكر فى موضوع الزواج أصلا خاصة وأننى أنهيت دراستى هذه السنة، وكما تفضلت فطموحاتى لا تزال فى مخيلتى معلقة ولم تولد بعد. كلامك منطقى ومنمق وكأى كلام يعده رجل لامرأة فى مثل هذه الخطوة أعذرنى على صراحتى لكن ثقتى بخلود كبيرة ومن بين الأمور التى تدعونى للتفكير أننى إذا بنيت حياتى فسأبنيها على الثقة. المهم أرجو أن تمنحنى فرصة لأفكر وستسمع جوابى بالتأكيد.

- أشكرك جزيلا آنسة سلمى وتأكدى مهما كان جوابك سأتقبله حتى ولو رفضت حينها أتمنى لك كل السعادة وأعرف أننى سأخسر إنسانة رائعة، وإن قبلت فسعادتك ستكون مسؤوليتى إن شاء الله.
- ليلتك سعيدة سيد صالح
- وليلتك أسعد. (وقد ختم الاثنين نقاشهما بهاتين الكلمتين لعل الصباح يأتى بمفاجآت لا يتوقعها أحد)

مرت الأيام وسلمى متوجسة فى أخذ ورد، وخلود بجانبها تحاول أن تجيبها عن كل تساؤلاتها التى من شأنها أن ترشدها للقرار الصحيح وكانت سلمى من خلال أحاديث صديقتها عن صالح، حياته وتفكيره، اجتهاده وعمله، تجد فيه الشخص المسئول المتفانى الطموح صاحب المبادئ والذى يمكن أن تعتمد عليه فى حياتها كسند وزوج، هذا ما كانت تستخلصه دائما من معرفتها لصالح.

*****

فى أحد الليالي، وإذ بعائلة "لغوندى مجتمعة على غير عادتها، تجرأت سلمى بعد تردد كبير قائلة:

- أريد أن انتهز الفرصة ما دمنا كلنا مجتمعين وأطرح عليكم موضوعا، ترددت كثيرا فى البوح به
- أراك جدية اليوم، هل ستطرحين علينا قضية الشرق الأوسط، أم تريدين العودة إلى العراق (سلام متحدثا إليها بسخرية)...

قاطعه والده وقد قطب حاجبيه وبنبرة حادة: كفى سلام ودع أختك تتكلم.

استهلت سلمى كلامها من أول ما صارحتها خلود وكيف أنها التقت

صالح بلبنان ومن هنا كيف عرض عليها فكرة الزواج وكانت خلود حبل الوصل وأخيرا عندما كلَمها فى الهاتف، وحين أنهت كلامها ساد الصمت والجميع ينظر إليها. وبعدها تحولت نظراتهم فيما بينهم. وأول من تكلم كانت حنان أكيد كعادتها متسائلة عن النسب قائلة:

- ولأى عائلة ينتمي؟ هل هو من العائلات المرموقة؟، أم من العائلات المتواضعة المنتشرة هنا وهناك فى هذه الحالة أخبرك من أولها أمام والدك وشقيقك لا داعى ليخطو أية خطوة وأنت كذلك لا تتأملى بموافقتى حتى لا ندخل فى تفاصيل لا طائل منها.
- أعرف جيدا يا أمى أن هذا هو همك الوحيد ولا أستغرب سؤالك، فأنت تبحثين عن الجاه والاسم والشهرة وليس عن سعادة ابنتك.

أما سلام، ولأول مرة تكلم وكأنه شخص آخر متجاهلا ردة فعل والدته: وأنت يا أختى ما رأيك هل أبديت موافقتك أو أى استحسان؟ من جهتى سأسأل عنه إذا أردت. ولا تهمك حالته الاجتماعية أو أى شيء آخر المهم سعادتك هذا ما يهمني. وهنا اغرورقت عينا سلمى بالدموع وهى تسمع كلام شقيقها مستغربة موقفه.

توالت المفاجآت موضوع سلمى وموقف سلام الذى لم يخطر ببال أحد، هنا تدخل كمال بعد أن سمع رأى الجميع، وفى كلامه حزن ممزوج بالفرحة.

- اليوم أرى أطفالى وقد كبروا، سلمى تفاتحنى بزواجها وسلام يقف ليساندها فى الوقت الذى تحتم عليه عاطفة الأخوة أن يقوم بذلك لن أعارض رأيك إذا كان هذا الشاب كفؤا وفى حالة وافقت عليه أتركى لنا وقتا لنتقصى عن أمره وبعدها نقرر.
- أترك لى مهمة السؤال عنه يا أبى وخلال أيام قليلة سأرد عليكم.

*****

بدأت مسيرة سلام فى السؤال عن صالح، خلال تلك الفترة كانت سلمى وخلود منهمكتين فى التحضير لمشوارهما العملى أما صالح فقد عاد لشركته بعد جولة طويلة ليعيد تسييرها من جديد، ولتسير الأمور هكذا حتى يأتى القدر بالمفاجآت ولابد لها من أن تكون.

- لم أجد صعوبة فى التقصى عن صالح أو عائلته فقد ساعدنى صديق لى وعرفت أنه شخص معروف على جميع الأصعدة، شاب مثقف ورجل أعمال أنهى دراسته الجامعية، ناهيك على أنه إنسان عصامى متواضع وسيرته حسنة لدى العام والخاص. وأخبرنى "ناجي" وهو من ساعدنى بأن صالح ينتمى إلى أهم العائلات هنا بالكويت ورث عن عائلته ثروة كبيرة، كان له أخ وأخت توأمان لكنهما توفيا فى حادث مرور خلال سفرهما إلى باريس، وكانت رحلة سياحة حسب ما فهمته منذ حوالى عشر سنوات أما والده فقد أصيب بشلل بعد أن سمع بخبر وفات ابنيه وبقى على هذه الحالة مدة خمس سنوات. وبعدها توفى. وهكذا بقى صالح وحيدا رفقة أمه، ويساعده فى إدارة شؤون شركته ابن عمته باعتبار أن والده كان له أخت وحيدة. هذا كل ما عرفته، وهذا ما يهمنا أساسا. (كل هذا وسلام يخبر عائلته عن نتيجة بحثه وسؤاله عن صالح)

نظر الجميع إلى بعضهم بعد أن أكمل سلام حديثه، وبعدها وجه كمال نظراته إلى سلمى قائلا:

- أظن أن الرجل لا يعيبه شيء بعد كل ما سمعناه والقرار يعود لك، أنت وحدك (وهو ينظر إلى حنان متحدثا إلى سلمى فى نفس الوقت)
- لا تضيعى هذه الفرصة من يدك تقدم لك شاب تحلم به كل البنات

وخاصة بنات "ديرته" كما يقولون، أسرعى واخبريه بأنك موافقة قبل أن يطير من بين يديك ويمل الانتظار (حنان مخاطبة سلمى)

هنا تدخل كمال لكن بوجه آخر وبنبرة مختلفة استغرب لها الجميع قائلا:

- لا أريدك أن تتدخلى خاصة فى هذا الموضوع تدخلت بما فيه الكفاية. حياتى كلها قضيتها كمشاهد لا أستطيع الكلام وأنت تمثلين مسرحية لعبت فيها كل أدوار البطولة الشرير المتسلط وأنا انحصر دورى فى التصفيق وأنت أجبرتنى على ذلك سواء أعجبتنى مسرحيتك أم لم تعجبني، لسنوات والصمت رفيقى لكن اليوم وفى تحديد مصير صغارى سأتدخل ليس لمجرد التدخل وإنما لأقرر كل ما يمليه على دورى كأب فهمت (قالها بصوت عال وهو غاضب)، بعدها استدار لسلمى بعد أن لانت تجاعيد وجهه وخاطبها قائلا:

- فكرى جيدا وحين تقررين أخبريني، ونهض وترك الجميع منبهرا خاصة حنان التى لم تحرك ساكنا.

وكانت سلمى فى غرفتها ونظرتها ملتصقة بسقف الغرفة، تعيد شريط الأحداث من يوم لقائها بصالح وكيف تسارعت الأمور إلى غاية هذه الليلة وموقف والدها، وقبله موقف سلام الذى لم تكن تنتظره، وبقيت تدور وتجول بأفكارها طوال الليل.

*****

أشرق صباح رائع شمسه تتربع فى السماء وكأنها ابنة مدللة، خلالها كانت عائلة "لغوندي" مجتمعة على طاولة الفطور. فقطع سلام صمتهم قائلا:

- اليوم دورى فى إعلامكم بآخر التطورات...

نظر الجميع إليه باهتمام وكأنه أيقظهم من غفوة أو نعاس.

- لقد قبلت أحد الشركات السياحية توظيفى وبالضبط فى كندا وقد تأكدت من الموضوع، أو ليست مفاجأة
- بلى فقط كثرت المفاجآت فى هذا المنزل (كمال بصوت خافت وهو يقرأ الجريدة كعادته)
- بعثت بطلبى مرفقا بملف وتم قبولي، وسأذهب على الأغلب خلال هذين الشهرين.

وهنا تدخلت حنان وهمّت بالبكاء:

- أجل هذا ما كان ينقصنى الأولى تتزوج البارحة، واليوم يهاجر الثانى وها أنا أحصد ثمرة تعبى طيلة هذه السنوات.

ورد عليها كمال بتعصب وبطريقة قاسية، وكأنه ينتظر هذه الفرصة قائلا:

- أظن أن هذا ما أردته وحلمت به وأمانيك تتحقق بسرعة كبيرة، زواج تحلم به كل فتاة من شاب غنى له اسم ومن الطبقة التى تعشقين الانتماء إليها، وابن بار بوالديه سيهاجر ليواكب التفتح والتحضر فقط ليشبع غروره لا لشيء آخر، فعلا حصدت ثمرة تربيتك لابنك وحققت أحلامك عن طريق ابنتك التى لم تلعبى يوما معها دور الأم واليوم تساندينها فقط لتفتخرى بالنسب أمام صديقاتك ومعارفك.

(ونهض بالقوة من على الطاولة وسكب فنجان القهوة عليها وتحول لونها الزهرى إلى البنى وكأنه يشرح أجواء العصبية التى كانت تعيشها عائلة "لغوندي").

خلال هذه الفترة كانت العائلة تعيش فى جو من التوتر وعدم الاستقرار، كمال الذى بدأ يستعد للعد التنازلى واقتراب لحظة الفراق ولم تسمح الفرصة ليكون يوما صديقا لسلام يسمعه وقت يحتاجه وينهاه حين

يُقدم على ارتكاب الأخطاء، وسلمى ابنته المدللة الوحيدة التى كانت تفهمه ويفهمها ومع هذا لم تترك له زوجته فرصة القيام بدور الأب أو حتى الزوج ووجد نفسه فى نهاية المطاف ضائعا يحوم فى دائرة مفرغة، لم يتجرأ يوما الخروج منها بسبب الخوف والرضوخ لرغبات زوجته وانحصر دوره فى إرضاء قناعتها وطبقيتها عن طريق تعجرفها.

وهكذا عاشت العائلة أياما قد تكون هادئة فى مظهرها الخارجي، لكنها كانت فى حقيقة الأمر تعيش غليانا فوق بركان لم ينفجر بعد. كل هذا وسلمى فى أخذ ورد مع خلود تستشيرها وتخبرها بكل المستجدات التى تحصل فى بيتهم، خاصة وأن خلود قد سافرت مع أهلها لزيارة جدتها المريضة وصار الاتصال فقط بين الصديقتين ووجدت سلمى نفسها وحيدة لا تعرف ماذا تفعل. وكانت خلود تشجعها دائما على قبول فكرة الزواج خاصة بعد أن فوجئت بموقف سلام، وكمال الذى لم يكن فى الحسبان وتقبلهما فكرة زواج سلمى من صالح بعد أن سأل عنه شقيقها، وبعد الأخذ والرد قررت سلمى الموافقة على صالح لأنها لن تجد شخصا مثله، وأخبرت خلود بأنها ستعلم والدها حتى يقرر موعد زيارة عائلة صالح لخطبتها رسميا.

- لا أصدق، أخيرا سلمى وافقت على الزواج. أؤكد لك أنك لن تندمى وسأحاول أن أعود من السفر فى أقرب وقت فقط حتى تتعافى جدتى وسيطير صالح من الفرح لأن المسكين فقد الأمل وهو ينتظر... وينتظر.
- أرجوك خلود لا تخبريه بقرارى حتى أتكلم مع والدي، وبعد عودتك أيضا من السفر.

*****

حانت ساعة المصارحة، ستتغير حياة سلمى وترحل عن هذا المنزل

تاركة وراءها كل الذكريات التى أحبتها والتى عذبتها متمنية ألا تعود لتبدأ حياة جديدة لم تتوقعها على الإطلاق فى بلد آخر ومع شاب ليس من بلدها ولكن القدر هو من رسم طرقها ولهذا ستسلك هذا الدرب حتى نهايته.

كان صباحا جميلا، ومنزل كمال يعمه الصمت والهدوء لا أحد فيه عدا سلمى ووالدها يرتشفان الشاى وكانت الفرصة ملائمة لتخبر سلمى والدها بقرارها، فاتحته بالموضوع وأنها موافقة بالزواج من صالح بعد أن فكرت طويلا وهى اليوم تأخذ رأيه بقرارها هذا. وعندما فرغت من كلامها وكانت مطأطئة الرأس تتكلم بخجل ولم تكن تنظر لوالدها الذى كانت دموعه ترافق كل كلمة تنطق بها، مدللته التى كبرت وستستقر فى بيت زوجها بعيدا عنه. من الذى سيراه كل صباح وهو ذاهب لعمله؟ ويلمح ابتسامتها من بعيد أو يفتح باب غرفتها للاطمئنان عليها كل ليلة لتمسح عنه أحزانه لكن هذه سُنة الحياة وما عليه إلا التعود على فراق وحيدته وأعز الناس على نفسه.

لاحظت سلمى صمت والدها. وفهمت حزنه لقرارها إذ بها ترى دموعه ولأول مرة وهو يخاطبها:

- كبرت صغيرتى وهى اليوم على أبواب الزواج أناقش معها موضوع رحيلها عنى لا أعرف هذا الشعور الذى انتابني...،المهم صالح شاب صالح كاسمه وأتمنى أن أطمئن على ابنتى ومادام أنه موافق على أن تعملي، ومواصفات الشاب المثالى تتوفر فيه بقى فقط أن أتمنى لك حياة سعيدة وأن توفقى فى تحقيق كل ما ترغبين فيه برفقته (وهنا لم تتحمل سلمى ودون أن تعى وجدت نفسها فى أحضان والدها وهما يبكيان وكانت دموع ألم وفراق).

*****

وجاء اليوم الموعود. خطبة صالح وسلمى بعد أن رافقه العم حسين والست عايدة بالإضافة إلى والدته الطاعنة فى السن الست "حبيبة" وكبار النسوة من أقاربه، وكادت حنان تطيرا فرحا بصهرها ونسبها أما كمال فكانت فرحته ممزوجة بحزن الفراق. وخلود التى استقبلتهم رفقة عائلة كمال معتبرة نفسها أخت سلمى.

وكانت ليلة من ألف ليلة وليلة تحقق فيها حلم صالح بالزواج من سلمى وأمنية حنان بنسب تفتخر به فى كل مكان. وقد طبق كمال عادات أهل الكويت ومحافظة الخالدية خصوصا معتبرا نفسه من أهلها حيث أبلغ أهل العريس بمتطلباته كما أنه لم يشترط مهرا محددا وإنما كان شرطه الوحيد سعادة ابنته الوحيدة وهو مجتمع رفقة سلام برجال كبار السن من أهل صالح.

وبعد أيام أحضرت النسوة الدرة وبها البقشة وهو عبارة عن صندوق يحمل هذه الأخيرة بداخله أنواع من الأقمشة بمختلف أشكالها وألوانها إضافة إلى العباءات وأغطية السرير والفوط مزينة بالحلى والمجوهرات وهذا حسب عاداتهم وتقاليدهم، وحنان تشاهد جهاز ابنتها التى كبرت وأصبحت عروسا وقد أهدتها أم صالح أجمل المفروشات والمجوهرات باعتبار سلمى كنتها الوحيدة وفرحة ابنها التى طالما انتظرتها. كل هذا كانت تطمح إليه حنان وبهذا وصلت لهدفها بإشباع رغباتها والتفاخر أمام صديقاتها.

-بعد مرور ستة أشهر قام صالح بتجديد أثاثه الذى لم تصر سلمى كثيرا على تغييره ورفضت حتى اختياره، عكس والدتها التى كانت تهتم بهذه الأمور ما زاد من إعجاب صالح بسلمى كما أنهما اتفقا على أن يكون شهر العسل بلبنان مكان لقائهما لأول مرة والمكان الذى جمعهما.

- عام ١٩٨٥ وبالضبط فى شهر فبراير بدأت مراسيم الزفاف بعقد

القران فى بيت العريس ويدعى بالملجة بعد أن قام صالح بتقديم العشاء للأقارب والأصدقاء فى ديوانه وكان عرسا قدم له كل من أحبه وعرفه ولبوا دعوته باعتباره من خيرة الشباب وأحسنهم. وهذا بعد أن أقيم فى بيت العروس أو فى الحى الذى تسكنه سلمى تقاليد تعوّد عليها الكويتيون فى محافظاتهم وخلود برفقتها باعتبارها أقرب شخص إليها، حيث اجتمع نسوة الحى للمساعدة فى إقامة المراسيم وكذلك فى معاونة العروس عند ارتداء لباسها ناهيك عن تقديم الشاى والقهوة للمدعوين وأهل العريس ورشّهم بماء الورد من طرف أهل العروس. ليُزف فى الأخير العريس وهو مكسو بالغترة والعقال إضافة إلى الدشداشة والبشت رفقة عروسه فى بيتهما عقب صلاة العشاء حسب التقاليد المعمول بها فى بلدهم الكويت.

مرّت مراسيم الزفاف باجتماع كل الأحباب والأصدقاء وصالح ينتظر أميرته ليرافقها أمام الجميع وشعور المدعوين متناقض بين الفرح وبين الرجوع للذكريات الأليمة وفقدان أعز الناس الذين لولا القدر لكانوا أمام الباب يستقبلون الناس ولكن أمر الله كان أقوى من ذلك. وأول من كان متأثرا بذلك أم صالح الست "حبيبة" التى تذكرت ولديها اللذين اختطفهما الموت فى حادث مرور ووالدهما الذى مات بحسرته بعد مرض دام لسنوات، وصالح فى هذه الليلة يحقق لها فرحتها الأولى والأخيرة باعتباره وحيدها. وامتزجت الفرحة بجرح أحيته الذكريات من جديد وكان العرس فى قمة الروعة انطبع فى ذاكرة كل من حضره وسلمى عروس الكويت تزف لعريس من غير بلدها، وهى تتأرجح من مكان لآخر بسبب أحداث لم تكن يوما تنتظرها.

فيا ترى هل من مفاجآت تنتظر سلمى بعد كل هذه الأحداث؟.

أيام قضاها العروسان بلبنان، والحياة الجديدة تدخل من باب الزواج فى أول خطواتها ليكتشف كل واحد منهما الآخر وتزامن مع هذه الأحداث سفر سلام الذى كان يحضّر له والرحيل للعالم الذى طالما حلم به على الرغم من إصرار والده فى إعادة التفكير وقد أتيحت له عدة فرص للعمل بالقرب من عائلته، لكن أفكاره وتشجيع والدته جعله يكون دائما ضد التيار الذى يقتنع به والده وشقيقته. حيث كان ينتظر عودة سلمى من شهر العسل ليودع العائلة وينطلق للعالم الذى طالما انتظره.

*****

حانت لحظة الوداع وكم كانت مؤلمة فكل من رأى وسمع كلام سلام وطريقة وداعه لعائلته يعرف أن هذا الشاب ينوى الرحيل من دون رجعة. كانت دموع كمال وكأنها سيل يبكى حرقة فراقه لأولاده يشرح من خلالها غربته التى تحولت إلى غربتين. الوطن وبعدها فراق فلذة كبده. أما سلمى ووالدتها فكانتا تجهشان بالبكاء ولم تستطيعا أن توقفا دموع الفراق وبعد أن ودعهم رافقه صالح إلى المطار بعد إصراره لأنه رفض أن يذهب معه أحد. وترك بذلك سلام الجميع ولم يستطع أن يستدير نحوهم حاملا حقيبته بيده وعيناه تذرفان دمعا تشرحان ما يختلج فى صدره مدركا لما هو مقدم عليه ومصر فى نفس الوقت على مغامرته هذه التى لم يحققها وسط عائلته وفى حضن وطنه.

كانت أياما أمر من العلقم على والديّ كما وصفتها سلمى لخلود، بقى الاثنين وحيدين، فى بيت كئيب مظلم لا يشع نوره إلا بزيارتى لهما رفقة صالح كما يقول والدى وهذا ما يزيد من ألمي، فهو يحس بقصر الساعات عندما نزورهم. وزيارتى لهما قلّت عندما أصبحت أعمل مع صالح فى

شركته بعد أن اقترح على العمل معه وأقنعنى بذلك. حيث تأقلمت سلمى بسرعة فى العمل. وكانت تساعد صالح كثيرا باقتراحاتها ومحاولة وجود بعض الحلول للعراقيل التى تواجهه من خلال مساعدتها له فى العمل باعتبارها درست الهندسة كما كانت توفر له كل ما يحتاجه من راحة وجو ملائم للعمل.

كل هذا زاد من محبة سلمى فى قلب صالح وكانت تكبر فى عينه كل يوما فالقدر عوضه سنوات الحرمان والألم بوجودها إلى جانبه وكل هذا كان من حسن حظه. هذه الكلمات التى كانت تتردد دائما على لسان صالح وهو يسمعها لسلمى وهى تجيبه بابتسامة خجولة، وبحب وامتنان لأنه عوض غربتها فى الوقت الذى كانت تبحث فيه على إنسان مخلص ووفى.

الفصل الثاني

سلمى التى كانت تعيش حياة كلها سعادة رفقة صالح فعوضها كل شيء وكل ما تمنته وبقيت سلمى من جهة أخرى العزاء الوحيد لأهلها، بعد رحيل سلام والذى انقطعت أخباره ولم يعد يتصل بأهله، ولم يعرفوا عنه شيئا منذ أشهر وبسببه أصبح الحزن هو الرفيق الوحيد والدائم لكمال وزوجته يعيشان صمتا غير منته يقطعه الفرح والأمل فقط عندما تزورهما سلمى خاصة عندما يرافقها صالح، حيث كان دائما كمال يردد نفس الجملة عندما يرى صهره وكأنها شعار أو نشيد "لقد جاء صديقى لا أعرف أأغلبه أم سيغلبني" ويجيبه صالح بابتسامة عريضة: "أين الطاولة أكيد والشاى على حسابك أنا الفائز دائما".

حنان التى تغيرت حياتها بتغير أفكارها أصبحت امرأة أخرى منذ رحيل سلام وفقدانه وزواج ابنتها أصبحت المرأة الهادئة، قليلة الكلام يغلب عليها الصمت ولا يهمها شيء سوى الاهتمام بزوجها ورعايته والذى أصيب فى الآونة الأخيرة بداء السكري.

*****

تداولت الأيام وحب صالح يزيد فى قلب سلمى بما وجدت فيه من حنان وحب وتفهم خاصة فى خضم كل الظروف التى تعيشها مع عائلتها ومساعدته لها طول الوقت سواء فى عملها أو رغبتها فى إتمام دراستها. كما

أن خلود صديقتها الوحيدة وبعد زواجها هى الأخرى من أحد رجال الأعمال وهو قريبها تغير نمط معيشتها إلا أن علاقتها بسلمى أصبحت أقوى من ذى قبل فزيارتهما لبعضهما دائمة ومتبادلة رغم المسؤوليات الكثيرة ناهيك عن طبيعة عمل زوج خلود "رامز" والتى تستدعى منه السفر دائما لدول الخليج والشرق الأوسط والذى كان يطمح لتوسيعها والعمل بالدول اللاتينية وهذا كان مشروعه. كما أنه كان صديقا مقربا لصالح بحكم قرابته مع خلود إضافة لبعض الأعمال التى كانت تجمع بينهما وهذا ما زاد من تقوية أواصر الصداقة بين الأربعة.

وهكذا عاشت سلمى عاما تضاربت فيه كل الأحداث من مشاعر متناقضة بين حب صالح وحنانه وبين حزنها على فراق أخيها وحالة والدها وضياع والدتها ويأسها وبالتالى حتى الفرحة كانت ناقصة دائما فى حياتها ولم تعش سلمى الفرحة الصافية ولو ليوم واحد وكان القدر يعارض سعادة سلمى. الغربة وفراق شقيقها واليوم مرض والدها.

*****

- فى إحدى الليالى بينما سلمى وصالح على مائدة العشاء يأكلان وفى نفس الوقت منشغلان برؤية الأخبار وما يحدث فى العالم خاصة الوضع المتدهور بين الكويت والعراق لاحظ صالح أن سلمى على غير عادتها وجهها شاحب، تأكل ببطء وتبتلع الأكل بصعوبة.
- صالح: ما بالك يا سلمى؟ أرى وجهك تغير.
- سلمى: لا أدري. لكننى متوترة ومعدتى تؤلمنى قليلا.
- صالح: إنك متعبة بسبب الظروف التى مررت بها، وأنت كذلك ترهقين نفسك كثيرا فى العمل.

- سلمى: ليس الأمر متعلقا بالعمل وإنما اختفاء سلام وحالة عائلتى أنت تعرف.

ونهضت بعدها مسرعة إلى الحمام وصالح ينظر إليها مطأطأ الرأس كأنه نادم على ما قال لها. وبقى ينتظر أمام الحمام وقد أطالت المكوث فيه وهذا ما زاد من قلقه ونفذ صبره وراح يطرق الباب بقوة: سلمى ما الذى حدث؟ هل أنت بخير متأسف لم أقصد ما قلته. كان وجهها مبللا بالماء وهو شاحب أصفر لا تستطيع حتى التحدث واتجهت فورا نحو غرفتها وصالح يتبعها وهو يتحدث بخجل وبصوت خافت: ما بالك يا عزيزتى ؟ لم اقصد ما قلته لكن الوضع متوتر

- سلمى (وقد لزمت فراشها): لا بأس لكننى متعبة ولا أستطيع حتى التكلم معدتى تؤلمني.
- صالح: غدا إن شاء الله نذهب للطبيب وفى الصباح الباكر، نامى الآن واستريحي.
- دخل صالح وسلمى العيادة بعد أن أصر عليها الذهاب للفحص وما إن وضعا قدميهما حتى سمع صوتا ينادي:
- لا أصدق، السيد صالح؟ كيف حالك ؟ أين أنت؟ لم نرك منذ تزوجت وحضرنا عرسك. لهذا الحد قيّدنا الزواج؟

التفت، كان الدكتور مصطفى، صديقه الجرّاح، راح يسأله عن سبب زيارته للعيادة، عندما خرجت الدكتورة "مريم" طبيبة نساء وكانت المفاجأة أنها زوجة الدكتور مصطفى. رحبت بهم، وأدخلت سلمى إلى غرفة المعاينة بعد أن شرح لها صالح حالتها وبقى رفقة صديقه قرب الباب، فما هى إلا دقائق حتى خرجت سلمى ونظرت إلى زوجها بابتسامة عريضة رُسمت على كامل وجهها.

- كان صالح يقود السيارة وكأنه يقود يختا وسط المحيط لا يرى أحدا سوى سلمى وقد حققت له أحد أحلامه وسط أناس رائعين وزوجته يعتبرها الأروع ينظر إليها بين الحين والآخر ويخاطبها بابتسامة رائعة يخبرها عن شكره وامتنانه على الخبر الذى زف له بأنه سيصبح أبا وسيرزق بطفل وتجيبه هى بخجل وحب كبيرين بابتسامة أروع. وقرر الزوجان إخبار كمال وحنان عسى أن يمحو هذا الخبر القليل من الحزن عنهما بغياب سلام وفقدانه.

- لم تنتظر حنان وكمال هذا الخبر المفاجئ حين أخبرهما صالح بأنه وعن قريب سيرزقان بسلام الصغير بعد سبعة أشهر إن شاء الله، حينها كان كمال طريح الفراش وحنان التى عبّرت عن فرحتها بدموع انهمرت كسيل تبكى فراق سلام الذى لم يكن حاضرا عند سماعهم لهذا الخبر وتبكى حصاد تربيتها لابنها الوحيد، وتأكدت بأن الحياة مجرد رحلة قد تكون طويلة أو قصيرة المهم أن كل واحد منا ينزل فى محطة معينة من قطار كان قد ركبه بعد أن عاش كل شيء بحلوه ومره ويبقى الماضى فقط يحكى ما جرى فما أهمية ما نقوم به ونبحث عنه من مظاهر كل هذا والجميع ينظر لحنان وهى تحكى متفاجئين بلهجتها الجديدة وتفكيرها خاصة كمال وسلمى....، وبعدها مسحت دموعها بسرعة وغيّرت الحديث وكأنها أفاقت من حلم أو نوم عميق واستدارت لسلمى قائلة:

- لا تنسى يا عزيزتى أن تخبرى خلود فهى أختك والوحيدة التى تعتمدين عليها وهى كل عائلتك، لا تتخلى عنها مهما حصل فقد كانت قريبتك فى غربتك ومحنتك وستكون فى فرحتك التى تتقاسمينها معها.

*****

مرت الأيام والأشهر وحالة كمال تتدهور شيئا فشيئا مع مرضه المفاجئ وقد أصبح طريح الفراش خلال هذه الفترة وضعت سلمى ابنها فى جو حزين بسبب مرض والدها والذى أخبرهم الطبيب عنه وبأن لا أمل من شفائه وأنه أصيب بالمرض الخبيث ولم تذق سلمى معنى الفرحة بازدياد أول مولود لها ففى تلك الليلة بالذات عرفت بخبر مرض والدها نقلت إلى المستشفى وبدلا من أن يكون أروع يوم فى حياتها كان من بين أتعس الأيام التى عاشتها وكانت بجانبها خلود التى خففت عنها الكثير من تلك المعاناة.

- كان أسامة الحفيد الأول وفرحة كمال وحنان خاصة عندما تأخذه سلمى إليهم أين يعيش معه جده أجمل اللحظات فى آخر أيامه وقد كان أسامة فرحته الأخيرة التى عوضته الكثير.

- وجاء اليوم الذى طالما ارتعب منه الجميع وكانوا يتمنون عدم حصوله، ساءت حالة كمال والجميع فى المنزل وسط جو لا يفسر من شدة الحزن، حينها بدأ الكلام وحديثه يدل على أنه يعى جيدا بأن ساعاته معدودة فى هذه الدنيا:

حين ولدت يا عزيزتى كانت فرحتى لا توصف غيرت حياتى وبعدها ولد أخوك سلام، تعرفين مقدار حبى لك ولن يصل أى شخص إلى مكانتك فى قلبي، كانت حياتى كلها عمل وبحوث وكتابات ولم أعش يوما لكم كأب فقط حنانك وحده الذى كان يعزينى وابتسامتك التى ساعدتنى على الاستمرار فى حياتي، والآن أهديتنى أكبر فرحة وهى أسامة حفيدى وما يحز فى نفسى أننى لن أراه يكبر ويمشى وينطق كلمة جدي. والذى قهرنى أننى لم أر سلام وكذلك لن أموت على أرض العراق وأدفن تحت ترابها، آه يا عراق أردت الموت على ترابك واشتقت لرائحة عطرك وليلك والأنس مع أهلك

والوقوف تحت مطرك، آه يا عراق عشت قريبا وسأموت غريبا (وهنا أجهشت سلمى ووالدتها بالبكاء وقد أيقنتا أن لحظة الوداع قد اقتربت).

*****

امتلأ بيت كمال بالمعزين وكان صالح فى استقبالهم أما خلود ووالدتها فهما من قامتا بواجب العزاء مع النسوة، وحنان التى دخلت فى غيبوبة لا تدرى ما الذى يدور حولها وسلمى تطمئن عليها تحاول مواساتها وهى الأولى بمن يواسيها فى مصيبتها.

وهكذا رحل كمال ودُفن فى الكويت قبل غروب الشمس فى نفس اليوم الذى توفى فيه حسب عادات الكويتيين. على الرغم من أن السماء كانت تبتسم بألوان هادئة، ألوان الغروب. إلا أن هذه الأخيرة وكأنها صبغت بالأسود فى عينى سلمى ومحا هذا الأخير كل الألوان الزاهية ليتربع على قلبها ويعتم النور الذى كان يضيئه والدها لتبقى وحيدة رفقة أمها تعزيها أم تنتظر عزاءها علّه يواسيها ويطفأ حرقة موت كمال، أم فراق سلام وغربتها وغربة والدتها. وهكذا أقيمت مراسيم العزاء لمدة ثلاثة أيام، وكانت المصيبة مصيبتان موت والدها وغياب سلام الذى لا يعرف له أثر منذ رحيله.

*****

مرت الأيام والأسابيع وكل شيء عاد لسابق عهده، وسلمى تحاول التخفيف عن أمها متجاوزة الأزمة ولو كان هذا بالتحايل والكذب وتزييف الألم والحزن الذى يسكن فى عروقها، ومع هذا فلا بد من مواصلة ما تبقى من الحياة بحلوها ومرها، وقد كان صالح أحسن زوج لسلمى وابنا لحنان عوضها غياب سلام وقام بدوره على أحسن وجه وحاول التخفيف عنهما

بمساعدة خلود التى كانت تتنهز كل فرصة للوقوف بجانب صديقتها.

بعد مرور ستة أشهر حصلت المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان خبر أعلنت عنه حنان حسب قولها فهو قرار اتخذته وكانت تنتظر الفرصة الملائمة لتخبرهم.

- حنان: أعرف أنى فاجأتكما بقرارى هذا لكن ستعذراننى عند سماع الأسباب لم يعد لى مكان بعد رحيل سلام وكمال وأعرف أنك ستلومينني يا عزيزتى لكن منذ زواجك ورحيل شقيقك قررت أنا ووالدك العودة إلى العراق، وأن يفتح دار نشر هناك خاصة وأن محل جدك كان يصلح لمثل هذا المشروع لكن القدر غيَر مسارنا وقرر عنا، لا تغضبى منى يا عزيزتى فقرارك بالزواج هنا يعنى الاستقرار وبدء حياة جديدة مع ابنك وزوجك. أما أنا فيجب أن أرحل لأهلى وعشيرتى أنت لا ترضين أن تموت أمك بعيدة عن الوطن كما حدث للمرحوم والدك. أعرف أننى سأتركك فى يد أمينة فصالح هو الفارس الذى تستحقينه وأعرف أنه سيعوضك كل ألم عشته، سيأخذك للعراق لزيارتى أنت وأسامة حفيدى الذى سيمحو أحزانى ويطفئ نار فراق ابنى وزوجي.

وما إن أنهت كلامها حتى كان حضنها مملوء بدموع سلمى وهى تقول لها وقد أجهشت بالبكاء:

من سيبقى لى بعدك اختفى العزيز سلام ورحل والدى وسندى وترحلين أنت الآن وتصبح غربتى غربتين فمن يطفئ نار فراقكم.

وهكذا رحلت حنان وكل من كان بالمطار أجهش لدموع وكلمات سلمى والأرض بكت لبكائها. لحظة هزّت كل من شاهد ذلك المنظر وسلمى

تمسك بثياب والدتها عند مغادرتها وكانت خلود تبكى وهى تحمل أسامة بين ذراعيها، لكن للأسف لا رجوع عن القرار، وحلقت الطائرة لتخرج من سماء الكويت وترحل لسماء العراق تاركة وراءها ذكريات أعز الناس رحلوا دون وداع، وسلمى تردد قائلة:

- ودّعت سلام وبعدها أبى واليوم أمى ولا أعرف مصيري، هل سيجمعنى القدر بها أو سنفترق ونبتعد أكثر بعد الفراق؟.

وهكذا عاشت سلمى أسوأ لحظات حياتها عوض أن تكون الأروع.

*****

مرّت سنتين منذ رحيل حنان، وأسامة يكبر بين عائلة رائعة أم عراقية وأب كويتي، يترعرع ضمن عائلة مثقفة ومتحضرة تعرف أهمية هذه الكلمة وتدخلها فى قاموسها سواء فى تعاملها أو فى تربية ابنهما.

ومرت الأيام متناوبة على الناس وكل ساعة تنبئهم بخبر، أيام تحكى صراعات دول عربية والتوتر بينهم حروب المستعمر وقهر أمم عربية تركناها ولم نستطع نسيانها. ودموعنا لا تزال تنهمر على فلسطين ولبنان الذى لم يلتئم جرحه بعد من حرب أهلية دامت لسنوات كل هذا نحاول أن نتجاوزه رغما عنا. لنتفاجأ اليوم بصراعات جديدة.

وما لا نستطيع تقبّله وتحمّله هو التوتر الكبير الذى يحصل بين الكويت والعراق حرب باردة لا نعرف نتيجتها وكيف ستنتهي. أوضاع يعيشها الشعبان خاصة والأمة العربية عامة فى خوف وقلق كبيرين.

وبقيت الحالة تسوء، ووصلت الصراعات بين البلدين إلى أوجها بسبب مشاكل البترول وأسعاره وفتح القنوات لسرقة هذا الأخير أرض الكويت التى اعتبرتها العراق ضمن ممتلكاتها، صراعات بدأت مع إيران وتندلع اليوم

بين دولتين شقيقتين وأضحت القنوات تتفق على خبر واحد وهو احتمال نشوب حرب بين العراق والكويت.

وفى تلك الأثناء كانت تصرفات صالح تتغير شيئا فشيئا مع سلمى تميل نحو العصبية والعزلة فى أغلب الأحيان، وكانت سلمى تعيش بين المطرقة والسندان فى ظل هذه الظروف تطير مبعثرة فى الهواء وكأنها ريشة قذفت بها الأشجار ولا تدرى أين هى بسبب علاقتها التى تسوء يوما بعد يوم مع زوجها بسبب هذه الأحداث.

عام ١٩٩٠...

بالضبط الثانى من أغسطس...

اليوم المشؤوم حين توغلت القوات العراقية إلى الكويت بعد توترات كبيرة ومنازعات بين الطرفين.

هنا انفجر صالح فى ليلة هوجاء على سلمى وهو يصيح بأعلى صوته كأنه شخص آخر:

- كيف ونحن الذين آويناكم وحميناكم تنهبون بلادنا وتأسرون شبابنا وتقولين أننا أمة واحدة وشهادتك لا تنطبق مع ما نراه، أُسر أبناء وطننا ودمرت أرضنا والفضل يعود لبلدك العراق فقد توغلت قواتكم وسيطرت على العديد من المناطق وكل هذا بسبب البترول والحدود فهل يرضيك كل هذا؟؟

وكانت ليلة سقوط الكويت واحتلالها نفسها ليلة سقوط منزل سلمى والكثير من المنازل، وأصبح صالح وحشا كاسرا يحطم كل ما يراه أمامه، وتأثّر أكثر عندما أُسر العديد من معارفه وأصدقائه، وتيقنت سلمى أنها بداية للألم والمآسى وهى لا تعرف أنها بداية لطريق العذاب ومسيرته.

وجاء اليوم غير المنتظر والذى لم يكن فى الحسبان، فقد أصبح صالح يفرض قوانينه الشرعية على سلمى انتقاما منها وأخذا بثأر بلده فقد منعها من الذهاب للعمل وحرمها من رؤية خلود.

وكانت الطامة الكبرى حين قرر سلبها أسامة من غير سابق إنذار حيث حمل الصغير وهو نائم فلحقته سلمى وهى تبكي: أين تأخذ الولد؟

أجابها بأنه سينقذه من امرأة جميع أهلها مجرمون يعذبون الأشخاص ويأسرونهم.

وكانت نوبة غضبه متزامنة مع ارتفاع عدد الأسرى واستنجاد الكويت بدول الخارج لمساعدتها فى هذه الحرب التى لم تكن تختلف عن الحرب القائمة فى بيت سلمى وصالح، أسامة يجهش بالبكاء، وسلمى تترجى زوجها محاولة منعه من ذلك لكن بقوته رماها أرضا فارتطمت بالحائط غائبة عن الوعى بعد أن أغلق عليها أبواب المنزل وأصبحت تعيش فى عزلة وجعلها أسيرة له، وتحولت حياتها الزهرية إلى حياة رمادية يشوبها الخوف والشك والعذاب والألم، ومهما حاولت إقناعه بأن يرد أسامة لحضنها وألا ذنب له فيما يحصل وسترضى بأى جزاء المهم أن لا يحرمها من فلذه كبدها.

لكنه بقى مصرا على موقفه خاصة وأن العديد من الأسرى لم يرجعوا، فيُتم أولادهم وترملت زوجاتهم وكان أحد أقاربه وكذلك أصدقاءه من بين من أسروا ولم يعودوا، فجعل من سلمى أسيرته حتى يطفئ نار غليله ويحرمها من أسامة وتحس بما يعانيه أهالى الأسرى الكويتيين حسب رأيه.

– الوحيدة التى بقيت تزورها خفية هى خلود، تذهب وتتحدّث معها من خلف الباب دون علم صالح وكانت تطمئنها على أسامة. إلا أن وضعها طال

ولا أمل فى رجوع صالح إلى سابق عهده.

كان مشهد خلود وهى تتحدث مع سلمى والاثنتان تجهشان بالبكاء مشهد ترق له القلوب القاسية دمعهما يسيل كشلال فى صحراء قاحلة، فخلود تلوم نفسها لما يحدث مع سلمى وهى من أصرت عليها الزواج من صالح، وسلمى تطرق الباب تريد كسره كالمجنونة لكن لا تستطيع، وهذا عند سماعها لخبر سفر خلود مع زوجها للخارج وهذا ما لم يكن فى الحسبان ناهيك عن الأوضاع المتأزمة فى العراق بعد دخول الدول الأخرى عليها مساندة للكويت وحماية لها ولمصالحها حسب قولهم، وبهذا ضاع آخر أمل لها وتحوّل من حلم إلى كابوس حقيقي.

- خلود: أعرف أن رجوعك إلى بلدك مستحيل خاصة وأنه لا أثر لوالدتك ووضع العراق متأزم ومع هذا لن يدوم عذابك.. قبل أن أرحل أعدك بأنى سأحل هذا الإشكال أو ترحلين من الكويت بشكل نهائي. واتجهت خلود فورا إلى مكتب صالح مقررة حسم الأمر نهائيا.
- خلود (بعد أن دخلت مكتب صالح دون استئذان وهى فى أوج غضبها) :لا أصدق، صالح الرجل الرائع الذى طالما افتخرت به تحول إلى وحش كاسر وأخذته الوطنية والكرامة على حساب أسرته وزوجته. اتق الله الكويت أيضا بلدى لكننى أميز بين الحق والباطل فلا أظلم أناسا أبرياء وأنا أعرف معنى الظلم، كما أن الست حنان توفيت وسلمى مسجونة هنا بسبب حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل. اتركها ترحل إذا لم تعد ترغب فى العيش معها.
- صالح: توفيت الست حنان من أخبرك بذلك؟!(وهو ينظر إليها مندهشا لطريقة دخولها وكلامها معه)

- خلود: حاولت الاتصال بها لم أستطع وعن طريق علاقات زوجى تأكدنا من وفاتها لهذا انقطعت أخبارها عن سلمى ولم استطع إخبارها كما أن العراق فى حالة غليان، أرجوك يا صالح اتركها ترحل أظن أن الحياة أصبحت مستحيلة بينكما عذبتها من أجل أسرى أخذوا وأسروا ظلما فأسرتها هى انتقاما.
- صالح: لن أعدك بأى شيء ستبقى هنا. أما أسامة فلن يعيش مع أم بلدها قتل وشرد أبناء وطنه. أنا أحترق وللمرة الثانية بعد وفاة شقيقى ووالدى واليوم قريبي، أصدقائى وأبناء بلدى أسروا وشردت عائلاتهم بسبب من آويتها فى بيتى ووطني.
- خلود: لست وحدك من تألم كلنا كذلك وفى ظل هذه الظروف وحتى سلمى ضحية هذه الحرب أتأسف لأننى حاولت مع شخص مثلك ووثقت بإنسان كان مختبئا وراء قناع المبادئ والأخلاق.

*****

- قررت خلود أن تنفذ خطتها بعد أن تأكدت من إصرار صالح على موقفه وأنها السبب فى تحول حياة صديقتها إلى جحيم وجرح ينزف بلا توقف. ذهبت إليها قبل موعد رحيلها بأيام.
- خلود (تخاطب سلمى من خلف الباب): أنصتى جيدا لما سأقوله لك. فقد طفح الكيل ولم يعد هناك أمل لرجوع أسامة لحضنك أو صالح لعقله.

لهذا سأساعدك على الهروب خارج الكويت قبل أن أرحل مع زوجى وإلا ستبقين هكذا طوال حياتك، فصالح مُصر على موقفه ولن يتراجع فى حرمانك من أسامة. وضميرى يؤنبنى لأننى السبب فى عذابك.

- سلمى: ما الذى تقولينه يا خلود؟ لن أترك ولدى وسأبقى هنا وأحاول مع صالح فيمكن أن تتحسن الأوضاع مع الأيام ويرجع صالح لصوابه. مستحيل لن أرحل مهما حدث.
- خلود: تحدثت مع صالح وهو مصر على رأيه ويفكر فى أن يبعث أسامة إلى الخارج رفقة ابن عمته وزوجته، لقد تأكدت من هذا الخبر إضافة إلى هذا...(ثم سكتت للحظات).
- سلمى: ما الذى جرى يا خلود، ماذا تخفين عنى فأنت الأمل الوحيد الذى بقى لى صارحينى بكل شيء.
- خلود: آه... لقد توفيت الست حنان (وهى تقولها بصعوبة) تأكدت من الخبر والعراق فى حالة غير مستقرة ولن يبقى لنا الكثير من الوقت كما أنها فرصتك الوحيدة للهروب.

جلست سلمى وراء الباب منهارة القوى بعد سماعها لخبر وفاة والدتها وما يخطط له صالح ورحيل خلود إلى الخارج. تبكى بأعلى صوتها تعبر عن القهر والظلم اللذين لحقا بها لحرمانها من أمها ولم يبق لها سوى زوجها الذى اعتبرته عائلتها فكانت القسوة والظلم منه. ولم يبق لها حل سوى إتباع فكرة خلود والرحيل دون رجعة على أمل لقائها بابنها فى ظروف أحسن.

بعد يومين وكعادته أتى العامل الذى يبعثه صالح ووضع الأكل أمام الباب بعد أن فتحه وأسرع فى غلقه إذ به يسمع صوتا يناديه.

- سلمى: أرجوك يا أخى انتظر، أخبر السيد صالح أننى أحتاج لرؤيته الليلة لأمر عاجل.
- العامل: حسن سأخبره يا سيدتي.

وفى تلك الليلة بالذات جاء صالح، فتح الباب وما إن سمعته سلمى حتى

ذهبت إلى غرفتها وارتمت على السرير ومثلت عليه دور المريضة.

- صالح: ما بك؟ ما الذى جرى؟

- سلمى: لا أدرى أحس بألم شديد فى معدتى وأنا على هذه الحالة منذ أيام.

- صالح: حسنا سأحاول الاتصال بالطبيب.

وفيما هو كذلك إذ به يسمع طرقا خفيفا على الباب، ذهب يفتح مسرعا ولم يرفع حتى رأسه ليرى من الطارق وهو منشغل يبحث عن رقم هاتف الطبيب وما إن فتحه حتى رأى شخصا ملثما رش عليه سائلا من زجاجة تشبه العطر فسقط أرضا مغمى عليه....!

بعد هذه الحادثة بساعات....

فتح صالح عينه وجد سلمى تبكى والطبيب والشرطة فوق رأسه ينظرون إليه وعلامة التعجب بادية على وجوههم.

- صالح: ما الذى يجري؟

-الطبيب: لا نعرف من الذى فعل بك ذلك حمدا لله أن السيدة سلمى كانت برفقتك واتصلت بى مباشرة.

التفت بعدها صالح إلى سلمى وعلامات الاستفهام واضحة فى عينيه يريد إجابة لما حصل له.

- سلمى: جاء شخص ملثم رشك بسائل وحاول ضربى لكن عندما وجدنى أصرخ طالبة النجدة هرب.

- الشرطة: لم يسرق أى غرض من البيت ومع هذا سنفتح تحقيقا فى الأمر.

- الطبيب: المهم حاول النوم هذه الليلة وغدا سأفحصك أو تعال لعيادتى

فجرحك سطحى وليس بخطير.

فى صباح الغد وعندما كانت سلمى تحضر الفطور سمعت ضجة فى الغرفة فذهبت مسرعة، فوجدت صالح يرتدى ملابسه فى وقت مبكر.

- سلمى: لست بخير فإلى أين تذهب؟
- صالح: سأرحل لدى أمور مستعجلة لحلها.

سلمى: أرجوك أعد التفكير وانظر لحياتنا كيف أصبحت، لقد اشتقت كثيرا لأسامة مرت ثلاثة أشهر ولم أره أشفق على حالتنا وأتمنى... (وعيناها تفيض بالدموع)

- صالح: (مقاطعا إياها) لا تحلمى برؤيته وإذ كان هناك أمل بعودة الأسرى وإحياء الموتى ورد الاعتبار لوطنى فسيكون هناك أمل فى رجوع أسامة لحضنك.
- سلمى: شكرا لأنك اعتبرتنى خائنة وشكرا لأنك أقحمتنى فى قضية لا حول لى فيها ولا قوة دفع الثمن فيها ولدى واحترق فؤادي، رحل عنى الأعزاء الذين كان باستطاعتهم أن يرجعوا لى حقى وابني، لكن ظلمونى وظلمهم القدر برحيلهم ولم يعد لى من سبيل إلا الانتظار. وأنت سيحاسبك الله على قسوتك وأدعوه أن يحرق فؤادك وينتقم لى القدر منك ويحرمك من كل عزيز كما حرمتنى من ولدى الوحيد.

وما إن سمع صالح هذه الكلمات حتى تغير لونه واحمرت وجنتاه ودون أن يعى ما يقول أو يفعل حجب الغضب عيناه أخذ يضربها دون تمييز بين الوجه والبطن وهو يصرخ أنت طالق، طالق... حتى أغمى على سلمى تاركا إياها وكأنه ترك حيوانا خطيرا أو سارقا محترفا، وكانت فرصته بأن ينتقم ويشفى غليله خرج من المنزل وهو لا يعرف أنها آخر مرة يرى فيها المرأة

التى طالما انتظرها وأن كلماته هى حروف الوداع ونهاية رابطة حلم بها كل من عرفهما.

*****

غربت الشمس مغلقة بابها بهدوء وسكينة حتى ينام كل من على هذه البسيطة تغلقه لتعدنا بفتحه غدا حتى نرى أجمل أيامنا أو أتعسها لكن دائما تحت نورها وهى شاهدة على كل ما نفعله.

وهكذا تُركت سلمى مرمية على الأرض وكأنها جثة هامدة، لتنقلب الأيام عليها كانقلاب الحيوان الأليف على صاحبه وقد حرمت من ولدها وشردت بعد رحيل عائلتها وهكذا تحولت من شخص أليف بسيط إلى شخص ضعيف مقهور.

رجع صالح إلى منزله، مكسور الضمير والخاطر لما فعله بسلمى لا يعرف من أين أتى وإلى أين سيذهب. شخص حائر يطرح عليه كل من يراه سؤالا واحدا ومشتركا ما بك؟ ما الذى جرى لك؟ وكأن من يخاطبه يتكلم معه لغة لا يفهمها وضميره فقط من يصرخ لماذا يا صالح، هذه سلمى هل مات فيك الضمير، هذه سلمى، سلمى يا صالح نور عينك ومن فارقك الحزن بعد أن عرفتها وأُرجعت لك الفرحة بجانبها وملأت كل خلية من جسمك وروحك، سلمى فرحتك يا صالح.

دُق باب سلمى والطارق مصر لا يريد الرحيل ولكن ما من مجيب، يُنادى اسمها بصوت خافت خجول:

– سلمى... سلمى، افتحى أنا خلود، سلمى ما بالك افتحي، وتدق الباب أقوى من الأول ثم تحدث نفسها فى صوت لا يكاد يسمع ولا يفهم: معقول...ممكن هذا يعنى أن صالح أخذها، يجب أن أفتح الباب...

لكن أخاف أن أجده، ما العمل يا الله؟.

- وبقيت تدق الباب ولكن هذه المرة بشكل عادى حتى لا يلاحظ أحد خوفها أو ما تحاول فعله. لكن طال الانتظار وهى فى أخذ ورد، طفح الكيل بهذه الكلمة أدخلت خلود يدها فى حقيبتها وأخرجت المفتاح مسرعة، وفتحت الباب بعدها دخلت بخطوات متثاقلة وهى خائفة، كل عضو من جسمها يرتعد من شفتيها إلى أخمص قدميها وهى تنادى سلمى، سلمى أرجوك أجيبي. أكيد لا يوجد أحد... ما الذى يجرى وبصوت مرتفع مفزوع صاحت:

- سلمى ما بك من فعل هذا!؟،وسقطت خلود على ركبتيها ووضعت رأس سلمى عليهما عندما وجدتها فى هذه الحالة، وأصبحت تبكى بكاءا شديدا وبصوت طغى عليه القهر والحزن، بكاء صديق على صديق مظلوم مذلول عانى من الظلم والمآسى ما يكفى لتعبّر وضعيتها المزرية عن حالتها حالة الغريب والمظلوم.

- كيف حالك يا عزيزتى لقد خفت كثيرا عليك. (خلود مخاطبة سلمى بعد أن حاولت أن ترفعها إلى السرير وتمسح الدم من على وجهها وهى تذرف الدمع على صديقتها تحاول أن تغسل الدم أم تغسل ذنبها كما قالت لسلمى)، ذنب اقترفته ولن أسامح نفسى عليه أبدا زوَجتك من إنسان لا يستحق مودتك وحبك.

أتأسف وأتحسر لرؤيتك هكذا يا سلمى. لكن صدقينى لم يبق من الألم شيء لقد نجحت الخطة ووُفقت فى أخذ جواز السفر إلى السفارة، بعد أن أخذت المفاتيح وفتحنا الخزنة وسترحلين فى غضون يومين إن شاء الله. كنت خائفة جدا عندما فتح صالح الباب لم أتوقع أن يغمى عليه فى الحين

كما خفت أن يستيقظ ولا أستطيع أن أواجه قوته العضلية ويكشف كل شيء ونفضح لكن الحمد لله مر كل شيء بسلام.

- كيف أسافر يا خلود للدنمارك وأنا لا أعرف أحد هناك؟

-لا تخافى حضرت لكل شيء.

- آه يا خلود كيف استطعنا القيام بهذا العمل، تعرفين لم أتوقع أن تكشّر الدنيا عن أنيابها ويتغير لونها من البياض والربيع إلى شتاء أسود كل يوم فيه يبكى على قدري.

- لقد ولت الأيام السود وأعرف أن الغربة لا تطاق، ولكن لا يوجد حل آخر سوى الرحيل والابتعاد.

- ابتعد! خلود أنت أم وتعرفين جيدا ما أعانيه، سأترك فلذة كبدى وأرحل سأترك أسامة الذى يحمل فى دمه حزنى وفرحي، ضحكة أبى وتكبّر وكبرياء أمى وتلقائية أخي، أسامة الوحيد الذى بقى لى يجلب الفرح ويُذهب عنى الحزن والألم، ذرفت الدموع ورافقهم صوتها الكئيب وهى تبكى بقوة بقهر وحزن لتعبر عن ألمها وتبكى على ما سيلقاها بعد أن فقدت كل شيء وستذهب خالية الوفاض.

فعلا بعد أن نجحت خطة خلود وجاءت ملثمة مثل السارق وقامت بتخدير صالح قامت سلمى بإعطائها المفاتيح وجواز السفر ثم حاولت أن تعيقها وتصرخ بقوة حتى توهم صالح أنه سارق فقط للرحيل من سجن بعد أن حكم عليها بقانون جائر، ومن ماضى أخذ كل شيء وتركت كل شيء وهى تبكى القهر قدر أخذ منها أسامة وأبعده عنها.

جاء اليوم الموعود، حيث قدمت خلود بعد صلاة الفجر. وقد رحل زوجها كالعادة ولكن هذه المرة استعدادا للاستقرار فى الخارج، جاءت بسيارتها

بعد أن دخلت إلى بيت سلمى بالمفاتيح التى نسختها من التى كانت بحوزة صالح وكانت سلمى تنتظرها وحقيبتها الصغيرة أمامها وكأنها بائس من بؤساء القصص والروايات.

– هيا يا سلمى تأخرنا قبل أن تشرق شمس اليوم وتفضحنا.

كيف تشرح دموعها وتفسر رحيلها، رحلت وهى تتذكر أول ما وضعت قدميها على هذه الأرض مع عائلتها، تبكى الفراق أم تبكى على العائلة، تبكى على قبر الوالدين أم تبكى على غربة الأخ المفقود، وأخيرا ستترك ابنها الوحيد هربا من الظلم وهى التى لم تنتظر أبدا تقلب حالها وقسوة الزمان عليها وعلى وحيدها تاركة القدر ليكمل حكايتها كما بدأها.

– تتذكرين يا خلود أول لحظة عند ولادة أسامة، كانت أجمل لحظة فى حياتى شاركتنى عائلتى إياها وأنا كالملكة وابنى كالأمير على الرغم من مرض والدى وما عانيته. أرجوك آخر طلب يا خلود. أترك لك هذه الرسالة، ربما يجمعك القدر بولدى وسيجمعك إن شاء الله. أخبريه بظروفى وحياتى فأنت من سينصفنى واحملى إليه هذه الرسالة إنها أمانة ثقيلة لم أجد غير هذه الطريقة، لأننى أعرف وأدرك جيدا أن والده سيروى حكاية أم وأهلها خانوا وطنه بعد أن كفلهم وآواهم، أم تركت ولدها يتيما وهربت دون سبب، أم لا تعرف سوى الخيانة بدءا بالوطن ونهاية بالأسرة وكان أسامة هو الضحية. أرجوك يا خلود، أنت فقط من سيوصل كلماتى إليه. وكانت الدمعة تسقط وكأنها حجر أثقلتها الهموم والمآسى وأكمل القهر مرارة أيامها

رفعت رأسها وهى تسمع بكاء خلود وعيناها تذرف الدموع دون أن تنطق ببنت شفة وقد وصلت الاثنتان إلى السفارة. نزلت سلمى وسلمت الرسالة

إلى خلود مودعة إياها وهى تقول:

- لا أعرف ماذا أقول تركت أهلى ووطنى وحتى ابنى ولكن فراقك أنت... عرفت من خلال صداقتك معنى هذه الكلمة فراق صديق هو الفراق الحقيقي، تذكرينى لأنك ستبقين فى روحى أجمل ذكرى لن أنساها لأنك من هون على غربتى وأنقذنى وواساني... اذكرينى خلود.
- ولم تستطيع الشفتان أن تعبر حتى عن وصف وداع الصديقتين سوى العين وحتى هذه الأخيرة حجبت الدموع عنها رؤية هذا الوداع والفراق.

رحلت سلمى بعد أن تركتها خلود أو تركت هى سلمى لتذهب إلى أرض أخرى وقد كُتب عليها الرحيل من أرض لأرض كالرحالة ولكن أى رحالة. هروب من القهر والظلم وحسرة ونار تحرق كل خلية من جسدها وقد تركت الابن الوحيد ومن بقى لها لتشم فيه رائحة كل من فقدتهم.

- وداعا سلمى وسامحيني... آخر ما قالته خلود لسلمى وهى تنظر إليها فى سماء الوطن لتذهب إلى سماء بلد آخر... وحياة أخرى!

الفصل الثالث

بعد عشرين سنة..

عام ٢٠٠٤...

وبالضبط شهر فبراير...

بعد مرور كل هذه السنوات وما خبأته فى طياتها كبر الصغير وأصبح رجلا يُعتمد عليه، ملامح تشبه صالح أكيد لكن تشبه شخصا آخر من يكون؟ لا يعرفه، لا يتذكره ولا يحمل له أى صورة أو حتى ذكرى.

كالعادة يرن منبه الصباح الساعة السابعة والنصف، يظهر شاب قوى البنية من تحت الغطاء، يشعل المذياع كعادته على أغانى فيروز ووردة وينادى بأعلى صوته:

- استيقظت أريد الفطور حالا معكم عشر دقائق.

حضر صالح وقد ظهر عليه الكبر وغطى شعره اللون الأبيض وامتلأ وجهه بالتجاعيد وثقلت حركت.

عشرون سنة كافية لتغير ملامح صالح من الخارج لكن هل غير الزمن ملامح روحه؟

دخل غرفة أسامة وهو يتمتم بعدها انفجر فى وجهه قائلا: - كل يوم على نفس الحال الفطور جاهز، الأكل والسيارة فى مكانهما كل شيء ينتظر، لكن أنت من تعيش فى فوضى وعجلة والفوضى فى رأسك، حاول أن تنظم

حياتك، تعبت وصبرى نفذ من أفعالك، وخرج وهو يتمتم.

مائدة الفطور من أشهى ما تراه العين وفى أجمل مكان فى المنزل، بستان جميل يقابله موقف السيارات، فيلا صغيرة، أكيد منزل صالح وهو جالس يحتسى الشاى كما كان منذ عشرين سنة.

نفس الجلسة والنظرة يتصفح الجريدة وهو صامت يعطى لدقائق القراءة حقها حتى يكملها فما بالك وهو فى الغربة يتصفح كل ما هو جديد فى الجرائد العربية، لكن من تلك السيدة الجالسة معه؟! تنظر إلى الفيلا وتحكى معه، تظهر ملامحها وتعاملها من صالح أنها قريبة جدا منه لدرجة أنها تنزع عن رأسه أوراق شجرة سقطت فوقه وهو جالس، شجرة بدأت تفقد كسوتها كسوة الصيف مستقبلة فصل الخريف بغيومه وجوه البارد أو بداية فصل حنون، لكن فى سويسرا فهو مختلف تماما.

لم نعرف بعد من هى تلك المرأة ذات العينين الزرقاواتين، هل هى أجنبية؟ وما صلة القرابة التى تجمعها بصالح؟ إذا كانت هناك قرابة أصلا.

اكتملت العائلة أخيرا بعد نزول أسامة وهو ينادى بأعلى صوته:

- أمى أين هى مفاتيح السيارة؟ وضعتها البارحة فى درجى كالعادة.

إذن هذه والدة أسامة زوجة صالح، زوجة أبيه امرأة عوضت حنان أمه الراحلة منذ سنوات وهل تركت صورة لولدها أم لم تتركها أصلا، كل هذا راجع للصورة التى رسمها صالح عنها وتركها فى مخيلة أسامة أو لم يتركها أصلا.

والجواب واضح دون طرح السؤال لأن سماعه ينادى "نورة" بأمى ويمازحها نوارة دليل على أن صورة سلمى غير موجودة أصلا بذهن أسامة.

يسلم على والدته ويحضنها وصالح مبتسم وفرح، تعبر كل تجاعيد وجهه عن فرحه بعلاقة ابنه وزوجته.

*****

- الكويت الثامنة والنصف ليلا، يرن هاتف منزل عائلة عبد العزيز.
- "نرجس": ألو، نعم.
- أسامة: كيف حال أمي. آه لهذه الدرجة تبعدك عائلتك عني، لم تشتاقى لابنك الوحيد أم أنه يكفيك وجود أحمد وعزة. المهم هذه هى مكالمتى الأخيرة وأتمنى أن تنسيني...، أردت الاطمئنان عليك وعلى إخوتي. وهو يضحك بين الحين والآخر، ويبعد السماعة عن فمه حتى لا تلاحظ السيدة نرجس نبرة صوته وكان يتكلم بشكل سريع حتى لا يترك الفرصة لها لتتحدث.
- نرجس: ألو أسامة، ألو، كيف تقول هذا؟!
- أسامة: ماذا أقول إذن؟!
- نرجس: آه منك ربيتك بحبى وكبرت بحنانى وبدموعى واليوم لا تنزل من عينى دمعة واحدة جفت مقلتاى على فراقك وأصبح القلب الشاكى الباكى من فراقك وتقول لى لم أشتق إليك، آه منك كرهت مزاحك.
- أسامة: آه أمي، أنا أمازحك فقط، كم أنا محظوظ بوجودك فى حياتي. المهم كيف حال أحمد وعزة اشتقت لكم كثيرا.
- نرجس: هل تأكل جيدا؟ متى ستأتى هذه المرة؟ كيف حال صالح ونورة؟
- أسامة: مهلك، مهلك أنا بخير وصالح بخير ونورة كذلك، لكن أنا والغربة...! المهم سنحاول أنا وأبى أن نصفى كل شيء هنا ونرجع

بعد أن حاولت إقناعه بشتى الطرق وكان ذلك شبه مستحيل، فهددته بالرجوع وحدى لقد تعبت كثيرا، اشتقت للكويت وإليكم كثيرا وخاصة أنت اشتقت لحضنك.

- نرجس: آه. وماذا أقول أنا... المهم هل قرر صالح العودة أخيرا ؟
- أسامة: ماذا أقول لك. الحمد لله (بصوت مرتفع)، قرر العودة والفضل يعود لأمى نورة فقد وافقت المسكينة بكل سهولة حين اقترحت عليها الرجوع نهائيا لأرض الوطن وهى تحاول إقناعه وبقيت أحرَضها حتى هدَدته بأنها سترحل معى وتتركه، حينها وافق السيد صالح. فلم يبق عنده أى خيار سوى الرحيل والعودة.
- نرجس: الحمد لله يا حبيبى أنك ستعود لحضنى وبين إخوانك. أسعد خبر سمعته.
- أسامة: نعم الحمد لله، المهم يا عزيزتى سأغلق الآن وأحاول أن أخبرك بجميع المستجدات، سلمى على أحمد وعزة.

وبمجرد أن أغلقت الهاتف، شردت عينا نرجس فى الصورة المعلقة بالحائط وهى جالسة عندما كانت بعمر الربيع وأحمد وعزة واقفان بجانبها وأسامة جالس على قدميها. صورة بالأسود والأبيض، وقفت أمامها وهى تخرج نفسا طويلا وكأنها تخرجه من أعماق أعماقها تعبر به عن ذكريات تُترجم فى عينيها المتسمّرتين فى تلك الصورة والممزوجتين بتنهدات متواصلة. لم يسألها لا أحمد ولا عزة عن سبب كل هذا بل أجابت وهى تائهة من تلقاء نفسها مسترجعة ماض عاشته.

- نرجس: فى مثل هذا اليوم أتذكره وكأنه البارحة كان الجو مغيما حزينا على الأيام التى عشناها وكل التوترات من جراء الحرب. دُق

الباب وكنت جالسة بجانب والدكم رحمه الله. نتفقد أحداث الحرب وآثارها ونعيش هموما ومآسي، يأسنا من بدايتها إلى نهايتها.

فقمت راكضة أفتح الباب، كان صالح وكنا نحن بانتظاره لأنه اتصل بنا وأعلمنا بقدومه، كان يشبه عمودا خشبى فوقه سيلان وشلال لا يتوقف بسبب الأمطار وبين ذراعيه القويتين شيء صغير يكاد لا يظهر، كان أسامة.

أسرعت بإدخاله. وما هى إلا لحظات حتى أغمى عليه ولم يستطع حمله فجاء والدكما ورفعه بعد أن حاولت أخذ أسامة وقد كان نائما حتى لا يسقط من بين ذراعيه وعمره آنذاك ثلاث سنوات وبضعة أشهر كان نائما كالملاك لا يعرف ما يحدث من حوله. كنت أحسده على ذلك، لكن اليوم أشفق عليه وهو يعى ما يدور حوله ولا يعرف حتى كيف يبدأ ويستفسر عن موضعه من كل ما يجرى حوله خوفا من والده وهو يقرأ فى عينيه جروح وحش مكسور وكان أسامة هو الضحية أو الفريسة إن صح القول.

أفاق صالح بعد ذلك حيث كنا ننظر إليه وهو فى تلك الحالة ولم نعرف ما الذى جرى له، فقد كان مترددا بين ترك أسامة فى البيت عند والدته أو إرجاعه للمنزل كما أخبرنى قبل أيام، وفى آخر لحظة قرر أن يحضره عندى خاصة وأن والدته كانت امرأة طاعنة فى السن ولم تستطع الاعتناء به كما انه لم يثق بالخادمة التى كانت معها بعد تلك الثورة التى حصلت بينه وبين زوجته أو بالأحرى الثورة التى كانت داخله. بعدها قام من فراشه وهو صامت لا يتكلم ولا ينطق، إنسان غريب ينظر إلى من حوله وكأنه لا يعرف أحد، مصدوم وحائر ثم عاد بعد صمته قائلا:

- صالح: لا أعرف، هل هذا جزائي، كنت لأتغير، لكن لو صبرت. أنا من فعل ذلك، ولماذا رحلت. وكانت كلماته مبهمة مبعثرة غير مفهومة.

- نرجس: من التى رحلت وصبرت؟ ما بك، ما الذى جرى؟

رفع رأسه نحو "عبد العزيز" (ابن عمته وكان بمثابة شقيقه وعيناه تفيضان بالدمع): رحلت وتركت كل شيء وراءها وقررت الرحيل بعيدا، لكن سأجدها سأبحث عنها فى كل مكان وأجدها.

- نرجس: من التى رحلت ؟ ما الذى تقوله يا صالح؟

- صالح: رحلت يا نرجس، سلمى رحلت لم أجد أى أثر لها بالبيت.

- عبد العزيز: ربما خرجت فقط وذهبت إلى مكان ما وستعود.

- صالح: كانت محبوسة وأخذت جواز السفر، لم أنتبه أنها ستهرب هكذا.

(قاطعته نرجس وهى تصرخ بأعلى صوتها) قائلة:

- ماذا؟... توقف كانت مسجونة ولا تملك مفاتيح المنزل ما الذى تقوله وبما أوهمتنا وأوهمتنى أنا خصوصا بأن سلمى لا تريد أن تتكلم مع أحد رحلت وستعود، أما هى كانت مسجونة ومحرومة من أسامة واليوم هربت آه يا إلهي، ما الذى فعلت وفيما أشركتنى فى حرمان أم من ولدها على أساس أن والدتها مريضة وأنها ذهبت للعراق للفترة قصيرة للاطمئنان على أهلها وستعود قريبا وأنت من أقنعتها بالذهاب والعودة وأنها ستترك أسامة فى أيد أمينة ومن تلك الأمينة؟ أنا والله يعلم ماذا كنت تقول لتلك المسكينة التى حرمتها من ابنها، بعد أن حرمها الزمان من أهلها. آه ماذا فعلت شهور والأم محرومة من فلذة كبدها، يا إلهى ماذا فعلت وفيما شاركت؟

وتسترجع نرجس الذكريات، وكأنها تحكى قصة مرت قبل أربع وعشرين ساعة. مهما وصفتُ ورويتُ لن تتخيلا كيف أننى عشت كل تلك السنوات فى عذاب وألم. أسامة يكبر أمامى وفى حضنى وكأنه ابنى وقد حرم من أمه ظلما.

- نظر أحمد وعزة لبعضهما متألّمين وقالا: نعرف جيدا هذا لا داعى لأن تخبرينا.
- نرجس: تربى يتيما محروما من أمه لا يعرف والده الذى يزوره مرة كل شهر. خاصة وأن صالح بعد تلك الحادثة حاول كثيرا البحث عن سلمى، لا أعرف لم يكن يذكر اسمها أبدا أمامى لأنه يعرف موقفى جيدا من هذه القصة، لكنه كان يخبر عبد العزيز أنه دائم البحث عنها. وتغلب اليأس على صالح فى إمكانية العثور عليها.

وبعد فترة قرر فتح فرع فى سويسرا وأخذ أسامة والرحيل دون رجوع. لكننى رفضت ذلك وبإلحاح وهددته بأننى سأقطع علاقتى به، كان صالح متفهما وترك أسامة يكبر فى حضنى إلى أن التقى بـ (إيزابيل) أى خالتكم نورة أمريكية الجنسية، عملت عنده فى الشركة وكانت أرملة سويسرى ذو أصول أمريكية لكنه توفى. ولهذا توطدت العلاقة بينهما وطلب منها الزواج وكان شرطه الوحيد أن تعتنق الإسلام. وفعلا وافقت إيزابيل وغيّرت اسمها بعد أن صحبها إلى الكويت ومكثت بيننا حوالى الخمس أشهر. ثم قرر صالح الرحيل وأخذ أسامة ولم يصبح هناك عذر بعد أن تزوج وأصبح لأسامة أم حسب قوله ولم أستطع ردعه، وكانت أسوأ وأسود أيام حياتى فراقى بأسامة ورحيله وأخذ معه ذكرياتى حزنى وحبى فرحى وكل شيء وحتى خوفى من الأيام القادمة فى بلد الغربة ومع والدته كما سماها صالح.

كان أسامة صغيرا لا يعرف التعبير عن رغباته وحاجاته وإذا حاول ذلك كيف؟ ومع هذا حاولت نورا أن تلعب معه دور الأم قدر استطاعتها ورحل أسامة وعمره عشر سنوات وترك كلمة ومعنى أكبر وأعمق من الفراغ. فلا داعى لأن أحكى لكما عن شوقى له ورؤيته فى كل إجازة وبعدها رحيله فقد

كانت دموعى ودموعه أصدق وأكبر تعبير عن ذلك.

وختمت نرجس حكايتها أو حزنها بتنهيدات متقطعة كانت موجزة لكن معبرة عن سنوات فراق وعذاب لن تنساها أبدا.

*****

وراء المحيط أين تختفى تلك البلدان والتى أخذت كل عزيز وغال يعيش أسامة مع والده وزوجة أبيه نورة منذ سنوات مؤسسين شركة هناك ومستقرين مبتعدين عن الوطن، يعيشون فى استقرار أم لا؟ لا أحد يحدد ذلك فالظروف هى التى تأمر والقدر هو الذى يقرر.

فى تلك الأيام وبالذات حين قرر أسامة العودة وأصر على والده رجع صالح بذاكرته إلى الوراء، سنوات سلمى وحبه لها، إصرار أسامة بأخذه إلى أماكن تعوّد فراقها وقرر الابتعاد عنها حتى ينسى ما جرى وما حصل خلال الماضي.

أصبح صالح عصبيا متوترا، طوال الوقت يحاول أن يتجنب أسامة قدر المستطاع حتى ينسى جزءا من ماضيه بقى وسيبقى مرتبطا باسم سلمى.

لاحظت نورة توتر صالح ومعاملته الباردة مع ابنه وكانت تحب أسامة كثيرا ومتعلقة به تؤيده فى كل أفكاره وتسايره فى جميع طلباته، لكن هذه المرة وبسبب حدة التوتر بينه وبين والده تحاول أن تتجنب كلاهما بسبب القرار الصعب الذى يحاول كل واحد أن يقنع الطرف الآخر به، ولا أحد يسمع أو يحاول حتى أن يسألها عن رأيها بخصوص العودة إلى الوطن. وطن الابن والأب لكن حتى عند اعتناقها للإسلام فهى غريبة عنه ولم تُقم أصلا بالكويت وإنما كانت سويسرا هى وطنها وملجأها قبل أن تعرف صالح وبعد أن عرفته، أو بالأحرى بعد أن تزوجت به عرفت الاستقرار الحقيقى

معه أسرة ومال وجاه وحتى النظرة إلى الحياة مشاكلها وهمومها ومع كبر أسامة ووعيه أكيد وعدم تقبله العيش فى وسط بعيد عن عائلته خاصة وأنه رحل من بيت نرجس فى عمر المراهقة أين يفرض آراءه ويحاول الدفاع عنها بغض النظر عما إذا كانت صائبة أم خائبة المهم أنها صادقة ونابعة من أعماق مراهق يحاول أن يتدلل بها على والدته نرجس، لكن الظروف وللأسف أجبرت أسامة ونرجس على الفراق وحتَمت عليه الرحيل والتعود على نمط حياة مختلف ومع أم أخرى فرضها والده عليه ومن حسن حظه أنها كانت أما حنونا حاولت أن تتفهم أفكاره ومراهقته وهو بدوره حاول أن يجد لها مكانا فى قلبه لأن القدر ظلم كليهما.

وبعد أخذ ورد مشاورات وصدمات، قرر صالح تصفية عمله فى سويسرا والرحيل إلى الوطن ليكمل ما تبقى له هناك بين أهله وأصدقائه خاصة وأن أسامة أصبح شخصا يعتمد عليه فى إدارة شؤون الشركة حتى أنه كان خائفا من أن تنقضى أيامه فى هذه الدنيا ويرحل ويترك ولده الوحيد فى الغربة بين كل هؤلاء الأجانب، وكان من الأحسن أن يعود إلى الوطن بجانب أهله، نرجس التى تعتبر فى مقام والدته وأحمد ابنها وهو بمثابة أخ لأسامة.

هذا ما تردد على لسانه عندما كان مع نورة محاولا إقناعها أنه وببقائه فى سويسرا يرتكب خطأ كبيرا ولا بد من العودة لمحاولة تنظيم أمور كثيرة حتى يبقى مطمئنا عليهما إذا رحل عن الدنيا، فلا ملجأ لهما سوى الوطن، كما أقنعها بأن أهله من أطيب الناس وسيحتوونها خاصة وأنها نعم الأم مع أسامة.

وبهذا قررت العائلة العودة لإكمال ما بقى لها من مشوار الحياة بين أهلها وخلانها. وكانت الأيام الأخيرة لعائلة صالح فى سويسرا أو العد التنازلى لذكرياته التى عاشها بتنوع أيامها وسنواتها، فرح تعب حنين

وشوق لقاء بعد فراق الأحبة ثانية إلى أرض الوطن لإكمال مسيرته ومشواره وأجبرته الظروف على خوضه أو بالأحرى اختار هو الخوض فيه، وكوّن العائلة الثانية كما كان دائما يقول بأن القدر عوضه حتى ينسى ما مر به على الرغم من أن ماضيه لن يُمحى من ذاكرته أبدا حتى ولو عمّر ألف سنة وكوّن عشر عائلات وزار العالم بأسره، ستبقى سلمى ملجأه الوحيد الذى عرف فيه معنى الحب والسعادة ومعنى الألم واليأس بعد رحيلها، وستبقى النقطة السوداء التى كانت دائما مرافقته حتى مماته نقطة سوداء تركتها سلمى بعد رحيلها وذكّره أسامة بها طوال حياته.

*****

كان يوما كباقى الأيام، عفوا لا يمكن أن نقول ذلك بخصوص أسامة فالسعادة لا تجد مكان لتعبر به فقد ملكت كل شيء فى جسمه وروحه ودخلت عينيه فتركت بريقا لامعا، وتغلغلت فى دمه فصار يغلى كالنار على أرض الوطن وسكنت شفتاه فلم تستطع الشفة السفلى أن تمس الشفة العليا، وكان أسامة قد نسى معنى الابتسامة الحقيقية حتى ولو تعالت الضحكات خلال السنوات الماضية، فالقلب يذرف دما ويبكى دمعا لا يكاد ينتهى ولا يعرف لهذه النهاية طريقا حتى جاءت هذه الأيام وقرُب موعد لقاء نرجس وأحمد وعزة، أرضى كل هذا وأسامة فى أخذ ورد ينهى آخر متعلقات الشركة لتصفيتها وقد أخذت منه جهدا كبيرا اختصارا للشهور والأيام والعودة لأرض الوطن، يقفز من مكان لمكان ومن مكتب لمكتب يودع كل من عرفهم والفرحة تسبقه قبل الكلام من خلال تجاعيد وجهه التى اشتاقت للوطن أين كانت مخبأة ونائمة لا تريد الاستيقاظ إلا على خبر العودة، عودة بلا رجوع والتخلص نهائيا من هاجس الهجرة.

أما صالح وزوجته فخرجا لترتيب أمور الرحيل بعد أن باع منزله واتفق مع المشترى أن يتركه له أيام قليلة فقط لتنظيم أموره العالقة، وخلال تلك الفترة كان صالح ونورا قليلا التردد إلى المنزل يقضيان أيامهما الأخيرة فى زيارة الأصدقاء وخاصة العرب وتوديع كل من عرفوهز وكان أصدقاء هذين الأخيرين يقيمان لهما احتفالا لوداعهما، ومع كثرة معارف صالح كانت اللقاءات غير منتهية وتصل إلى ثلاث زيارات فى اليوم.

وهكذا ترك الحمل على أسامة لتصفية الأعمال وأخذ صالح دورا آخر لتوديع الغربة بزيارة الأصدقاء وتوديع السهرات والحفلات التى كانت تخفف الكثير من حدة الغربة وخلق نوع آخر من اللقاءات والتجمعات العربية على أرض الغربة ورغم استنشاقهم لهذا الهواء إلا أنهم خلقوا الهواء العربى واندمجت نورا فعليا معهم فكانت نعم الأم ونعم الزوجة حيث كان صالح يصحبها فى كل أعماله ولقاءاته على الرغم من أنها كانت تحس دائما بأنها لن تصل إلى المرتبة التى تعتليها سلمى فى قلب صالح رغم أنه لم يصارحها بذلك إلا أنه عبّر عن ذلك بنظراته الحزينة أو كلما احتفل بعيد ميلاد أسامة أو يتذكر عيد زواجه الأول بينه وبين نفسه والذى كانت تعرف نورا تاريخه جيدا.

كانت عيناه وحتى نبرة صوته مختلفة عن سائر الأيام ويحاول الهرب من المنزل ويأتى متأخرا ومع ذلك لم تصارحه نورا يوما عما كانت تحس به، بالعكس فحنانها واحتضانها له كان يخجله كثيرا من تصرفاته ومن عدم مجازاتها بصنيعها اتجاهه واتجاه ولده.

انتهت إحدى حفلات صالح ونورة مع أصدقائهما، كان عشاء وداع وكانت الساعة متأخرة وأخذ الوقت صالح وهو مع أصدقائه يتذكر ويحكى أيامه

الخوالى ما اضطرهما للخروج من المنزل حوالى الساعة الواحدة صباحا.

كانت ليلة ماطرة شلالات فى الطرق ومياه جارفة فى عز أيام الشتاء، وفى خضم كل هذا خرج صالح ونورا متوجهان إلى المنزل رغم إصرار صديقهما عليهما ألا يرحلا حتى تهدأ الأمطار المصحوبة بالعاصفة، وأن يناما عنده حتى صباح يوم الغد لكن صالح أصر على الذهاب للبيت خاصة وأن أسامة وحده بالإضافة إلى ضيق الوقت، فقد حان موعد الرحيل ولم يبق للمجاملات مكان أو لإطالة السهر.

*****

فى تلك الآونة كان أسامة يترجم فرحته بالانتقال من غرفة إلى غرفة يحاول أن يجمع فيها كل أوراقه ويلملم معها ذكرياته التى تغربت معه وترافقه للعودة مرة أخرى للوطن فى حضن نرجس ورفقة أحمد وعزة قريبيه الوحيدين. فيما هو كذلك إذ بهاتف المنزل يرن.

- أسامة: ألو نعم (وهو ينصت لكلام المتصل متحدثا إليه بعدها بقى صامتا لم يحرك ساكنا وكأنه يسمع لغة غير اللغة المعتادة. كيف. متى وأين؟!
- كان أسامة يهرول مسرعا فى رواق المستشفى العريض بعد أن أُنبأ بخبر الحادث المروع فى الطريق الرئيسى حيث اصطدمت شاحنة لحمل البضائع بسيارة والده إثر انزلاقها بسبب سقوط الأمطار.

ربما أنا فى حلم مزعج ولا أستطيع أن أستفيق منه بعد كل هذا العناء وجهد المحاولة، بعد كل هذا العذاب وطول الانتظار، كل هذا والرواق لم ينته للوصول إلى غرفة الإنعاش التى أخذت معها كل الأمانى وفرحة نهاية الغربة واستبدلتها بنهاية أخرى ويا خوفى أن تكون نهاية غير متوقعة نهاية السعادة عوض أن تبدأ.

كل هذا كان يدور فى خاطر أسامة وهو يحاول جاهدا أن يمنع هذه الأفكار ال بعد أن يرى والده ووالدته أو زوجة أبيه فقط فى حالة يرجى منها الأمل وتعود الفرحة حتى ولو أدخل القدر الفزع فى قلبه من غير استئذان فقط أن يكون هذا الأخير زائرا مؤقتا.

أخيرا وصل إلى غرفة الإنعاش وقدماه ترتعشان، دخلها وهو يحاول أن يكون شجاعا. لكن أين الشجاعة وهو يرى والده فى حالة غير مطمئنة، وكل الأجهزة من حوله فقط لتمدد عمره، يرى جسدا بلا روح فهو كالخشب لا يسمع ولا يرى.

كل ذلك وأسامة واقف لا يتحرك فيه شيء غير الدموع تخرج من مقلتيه لتأخذ طريقها إلى الأرض بعد أن تمر على ذلك الوجه الحزين، دموع تنهمر كأنها الأمطار التى سقطت ليكون ضحيتها والديه ولتحزن السماء على وداعهما، فقد أخبر الأطباء أسامة أن نورا توفيت فى مكان الحادث، أما والده فهو يصارع وأى صراع فالقدر مرة أخرى يغيّر حياته بين لحظة وأخرى وفى برهة لا نعلم فأسامة بين يدى القضاء والقدر وما سيحكمان ويقضيان له أوعليه؟

*****

كانت أول ليلة لأسامة فى بلده جالسا بين أهله لا يتكلم ولا يتحرك يستقبل العزاء من كل معارفه ومعارف والده فى بيت نرجس وهم برفقته.

فقد حكم القدر على أسامة أن يرحل مع صندوقى والديه فى الطائرة، وقرر القضاء أن يكون جالسا على مقعد الطائرة ووالده تحته فى صندوق مرافقا نورا، سأودع سويسرا بأسود الذكريات واللحظات فقدت والدي، وكان هذا هو العنوان الوحيد وكانت نهاية سنوات لأعود حاملا صندوق

والدى عوض أن أمسك بيدهما أتقبل التعازى عوض أن أُهنئ برجوعى للوطن رفقة عائلتي.

كان الجميع صامتين فى تلك الغرفة، لا يتكلم أحد ولا يعبّر إلا بدمع مُر ينزل من عيونهم واللون الأسود هو سيد الجلسة فقد كان مخيما على الغرفة يرتديه كل الجالسين هو ملك اللقاء، يشرح ويفسر حالة أسامة وحالة كل أهله، بعد أن تم دفن والديه وكان رجوع صالح للوطن رجوعا نهائيا، رجوع لا مفر منه حاول هو فى كثير من الأوقات التهرب منه واعتبار سويسرا الملجأ الوحيد له لنسيان كل ذكرياته وعدم الرجوع وتحققت رغبته لكن عجَل بها القدر كما يشتهى والنهاية التى يريدها.

مرت الأيام والأسابيع وأسامة على حاله لا يعرف أين هو ومن أين جاء وكيف يبدأ.

فقط ينظر إلى كل من حوله باستغراب وبصمت وفى الدقائق القليلة التى يجلسها رفقتهم، كل هذا ونرجس تتجرع الألم والدموع كل سنوات الانتظار والفراق وهى تحلم بعودة ابنها.

لكن أى عودة وأى رجوع فقد انطفأت كل شموع الفرح والأمل واختُصر طول الانتظار بفاجعة وكان هو من دفع الثمن ومن يتجرع الألم ويبكى بدل الدموع دما.

نرجس التى ترى حالة ابنها وقد تيتم للمرة الثانية وهو يعيش هذه الكلمة بكل معانيها فقد عرف معنى هذه الأخيرة ولم يبق له أحد، ولم تجد نرجس الكلمات والمعانى التى توصلها لأسامة حتى تقنعه بأنه ابنها، وأن كلمة يتيم ووحيد لا توجد فى قاموس العائلة أو قاموسه ما دامت على قيد الحياة.

وبقيت ترافق أسامة كظله وتحاول أن تخفف عنه، ودائما توصى أحمد وعزة بأن يكونا كظله وأن لا يفارقاه خاصة وأن الشركة فتحت أبوابها من جديد وبحلة جديدة بعد أن صفى كل أعماله هناك ووسع أعماله وضمها إلى شركة أحمد كالسابق حين كان صالح وابن عمته عبد العزيز والد أحمد شريكان، لكن أسامة لم يكن يذهب إليها بعد أن رجع إلى الوطن وكان المسئول الوحيد هو أحمد ولكن مع تغير الأوضاع وانقلاب الأحوال رفض أسامة العودة إلى الشركة وكان يترجم رفضه كل مرة بأنه غير مستعد للعمل والبركة فى أحمد فهو يثق به وهو قادر على إدارة الشركة فى غيابه أو فى حضوره لكن من جهة أخرى فكثرة المسؤوليات وثقلها زادت على أحمد خاصة بعد توسيع الشركة إثر الاتفاق الذى كان بين أحمد وأسامة ووالده صالح قبل وفاته.

زاد الثقل والأحزان أثقلت المسؤوليات وخلقت الحواجز وقتلت كل حلم وفرصة لكل فرد من هذه العائلة. قتلت الأمل الذى انتظره كل شخص وربطه بمخططاته وحساباته، عودة أسامة وتوسيع الشركة رجوع صالح وزوجته إلى الوطن والعائلة، كل هذه الأحلام والأمنيات أخذتها قطرات المطر فى ظلمة حالكة وخطأ صغير أودى بحياة الكثير فمنهم من مات فعلا ومنهم من يموت كل يوم وهو حي.

*****

كان حبى له عميقا، وحبه لى أعمق يتصل بى دوما أراسله ويراسلني. فقد ضم هذا المنزل كلانا أو ثلاثتنا، كان دائما يراقبنى يضع الحرس حولى عندما لا يذهب للمدرسة أو لا تكون عنده حصة فى معهد الموسيقى الذى كنا نتردد عيله سوية.

كبرنا ونحن نتعارك ولكن أى عراك، كان يحاول دائما استفزازى ويتلذذ فى العبث بمشاعرى واستصغار أى شيء أقوم أو أتباهى به أمام والدتي، كان يسخر منه ويحاول إقناع والدتى بأنه يفوقنى فى كل شيء وكان جواب أمى فقط ابتسامة عريضة أو ضحكة خجولة، وهى معجبة جدا بعراكى الدائم مع أسامة والذى لا ينتهي، وكأنها كانت تعرف ما يخبؤه القدر لنا، أو كانت متأكدة من أن مشاعرنا ستتحول بعدها إلى حب كبير.

وربما تكون مجرد مشاعر، المهم أننا كنا نعيش معا أجمل الذكريات تحت جناح أمنا نرجس، وهى علاقة عادية بين أخوين تبدأ بالمشاجرة وتنتهى بالدراسة سويا أو اللعب ومشاهدة أفلام الكرتون والنوم على قدميها. كل هذا كانت ترويه عزة لصديقتها وهى تتألم على أسامة. وتنظر لما آل له من عذاب وحيرة.

لن تصدقى مدى عذابى وكم شهدت وسادتى وارتوت من دموعي. عندما رحل لم أستطع التنفس ولا حتى الكلام، فقد صدمت خلال رحيله إلى سويسرا وأخذتنى والدتى إلى طبيب نفسانى تابعنى مدة سنة كاملة وعمرى ثمانى سنوات.

وبعد تعوّدى على رحيله، أو حاولت الكذب بتعويدى على ذلك، فقد أصبحت الاتصالات بيننا لا تنقطع بالهاتف وعن طريق الرسائل، وكانت اتصالات بريئة كلها أحاديث عادية نحكى فيها عن كل شيء وحتى عن أبسط خطواتنا وتحولت هذه الكلمات إلى هموم يحكيها أسامة ويطلعنا عليها. هموم الغربة واشتياقه الشديد إلينا وإلى والدتى وخاصة إلى المشاجرة معي، وحبسى فى الغرفة وإغلاقها بعد أن يتفق مع أحمد، وكان هذا الشيء الوحيد الذى يعجبه فقد كان يعتبر هذا رجولة.

وعندما كان يأتى فى العطلة، دائما يحضر لى هدية ويخجل من تقديمها فيسلمها لأحمد حتى يقدمها لي.

وهكذا كبرنا وكبر حبنا من حب البراءة إلى حب أخذ مجرى آخر وتواصلت المكالمات والرسائل التقليدية تحكى عن اشتياقى له ولأيامه وكانت أروع شيء عشناه وقرب بيننا، فربما لو بقى أسامة هنا لما وُلد ذلك الحب والاشتياق لكن الغربة والبعد وطول الانتظار خلق شيئا رائعا لم يكن فى الحسبان ربما كانت نتيجة حتمية لعلاقتنا.

لكن أؤكد لكِ يا "عبير" أن الغربة والفراق هو أحسن شيء حصل لنا، فقد حول عذابنا إلى حب حقيقى وبقى أسامة هكذا حتى صارحنى فى أحد العطل السنوية التى كان يأتى فيها إلى الكويت بعد أن لاحظت ذلك من خلال عباراته، أسئلته وجوابه والطريقة التى كان يحاورنى بها والتى تفسر نوعا من القلق والاهتمام والغيرة الواضحة وأحيانا نتشاجر من غير سبب ولأى سبب.

وهكذا وُلد مع هذه الغربة حنين ومشاعر شوق حب ووفاء، هذه الأحاسيس كانت استثناءا عن كل القواعد التى عاشها أى حبيبين، ووعدنى أسامة بأنه سيقنع والده بالعودة إلى الديار ويعلن خطوبتنا بعد أن يصارحه بأنه يود الارتباط بي، وكان متأكدا من أن والدتى وأحمد يعلمان بأمرنا وأنهما سيفرحان كثيرا وتكون بذلك أول خطوة لإعلان ارتباطنا، ثم تأتى الخطوة الثانية ولا يهم متى المهم أنه سيضمن أننى سأكون شريكة حياته ونتقاسم مر الحياة وحلوها.

آه يا عبير انتظرت كل هذه السنوات للنظر فى عينى أسامة والاستمتاع فقط بصوته ويكون أول وآخر شخص أراه فى يومي.

لكن تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن يرجع أسامة وقد جلب معه كل الأحزان وترك كل فرصة، فبرحيل والده لم يعد أسامة الذى أعرفه وإنما شخص آخر لا أعرفه ولا أعرف ملامحه، وأين أسامة من كل تلك السنوات أين كلامه معى اشتياقه لي، خجله فى نظرته نحوى حتى أنه لا يرفع رأسه لرؤيتي، "عزة" التى كان يحسب الدقائق والثوانى لرؤيتها.

لا أعرف ما العمل يا عبير كل سنوات الألم والعذاب لفراقه لا تضاهى عذابى وحيرتى وأنا أنظر إليه وهو فى هذه الحالة هل لحظات السعادة كثيرة علينا حتى لا نطولها؟

*****

تجتمع العائلة على طاولة العشاء، وها نحن نرى أخيرا ابتسامة أسامة التى فارقتنا مدة طويلة ونرجس التى لا تصدق ما تراه، ابنها الذى طالما انتظرته وتدفع حياتها فقط ليعيش هو لحظة سعيدة تنسيه ما فاته ويعاود الاندماج معهم يرجع لسابق عهده ويخرج من كهفه المظلم.

- أمي، كيف كانت والدتى "سلمى"؟. (قالها أسامة بعد أن وضع فنجان الشاى على الطاولة وأكمل متحدثا):

- يكفى ما فتانى ورحيل والدى ولماذا رحلت دون سابق إنذار عن هذه الحياة؟ والمحير أننى لا أملك حتى صورة لها والكلام والسؤال عنها من المحظورات فى قاموس والدى رحمه الله هو وكل عائلته التى منعها أن تخبرنى بأى شيء.

أعرف ذلك تماما، وكنت أنت أول المهددين بألا تتكلمى عنها وإلا يأخذنى والدى من بين أحضانك.

توفى والدي، ورحلت والدتى وذكراها غابرة وكأنها من المغضوب عليهم،

وأنا أعيش الآن كمواطن بدون هوية لا أعرف شيئا عن أهل والدتى ولا أقاربها لماذا كل هذا؟!

لا أعرف حتى ما هو الذنب الذى اقترفته حتى أجازى بعذاب ومآسى ماضى أناس هم يعرفون جيدا أنهم المسؤولون عنه. خانوا ماضيهم بأفراحه وأحزانه، حتى ولو أخذتهم الأحزان وفرقتهم لكنهم صنفوا الفرحة والسعادة ومزجوها بالألم محاولين خلق الفرح بعد الحزن، لكن لم يسألوا عن الآخرين الذين ولدوا فقط ليتجرعوا مأساة الفراق والحقد والانفصال وليتجرعوا قرار الحكم الذى أصدروه حتى ينسوا مآسيهم وفعلا نسوها وبنوا مستقبلا آخر مسح كل الماضى الذى بقى يكبر فى داخلى سرا ويثقل كاهلى بكل الأحزان.

تجرعت معنى كلمة يتيم وكنت أعرفها رغم أنك لم تحسسينى بها يوما، عشت الغربة وكانت قرار والدى حتى ينسى أمي، فكان فراقى عنكم أكبر عذاب وأنا لا أعرف حتى هذه الأم التى تركتنى وقرر والدى أن أُعذب بسبب ذلك وأذوق معنى الغربة ويحاول أن ينسى ماض عاشه ويصنع لنفسه مستقبلا جديدا.

ومن يدفع الثمن؟ أسامة، ممنوع السؤال والجواب عنها العمل الدراسة وتحقيق الأحلام المادية كانت كافية حسب رأى والدى ليمنعنى من طرح سؤال ثم رحل ودفن معه السر.

أرجوك يا أمى ارحمى عذابى وألمي، ارحمى روحى التى تحترق كل يوم كالهشيم، بل ارحمى النار التى تحرقها وليس الروح، فالروح أصبحت رمادا لا أمل منها.

أخبرينى بما تعرفين عن والدتى فإنى ضائع ولا أعرف أى طريق

يأخذنى أو يرجعنى وبقيت أجول فى دوامة لا تنتهى اسمها الماضى المجهول.

أتوسل إليك لم أرد يوما أن أشعرك بعذابى وأسئلتى التى كانت كل يوم تقتلنى فقط لأنك منحتنى حنان الدنيا حتى أنك لم تحسسينى بوضعي، أحببتنى أكثر من أبنائك ولكنك لم تعرفى أننى كنت أتساءل وأنا أقرأ اسم أمى فى شهادة ميلادى اسم بقى لغزا لا أحد يريد إجابتى رغم أنكما الوحيدان من تملكان حله.

سقط أرضا على ركبتيه يبكى ويُقبل يدى نرجس، وقد فاجأ الجميع وعزة لا تستطيع وصف مشاعرها إلا بدموع كأنها شلال فى صمت. أما أحمد كان ينظر وكأنه شخص غريب عن أسامة أو أسامة الغريب بينهم، فهو ولأول مرة يرى صديق عمره وأخوه فى هذه الحالة ولم يصدق ما رأى.

كيف لنرجس وهى تواجه كل هذا البركان المنفجر فى أسامة وأمام كل سنوات الفراق ودموعها، فراق كان عذابه أكبر من كل ذنب اقترف.

لن تلزم الصمت مرة أخرى وتفقد أسامة. فكان عليها أن تحكى له قصة حياة والديه من يوم تزوج صالح بسلمى إلى غاية اختفاءها وهى تنظر لوضعه وتوسلاته ولم يعد مكان لإخفاء سر والديه.

ومن هنا بدأت تروى له القصة مرغمة مجبرة خوفا من أن تفقده مرة ثانية وعادت بالأحداث والذكريات وكأنها تعيشها تائهة بين جدران تلك السنوات التى حوّلت حياة عائلة صالح لشتات واستهلت القصة من يوم لقاء أبويه وبعد زواجهما إلى غاية هروب سلمى قائلة:

- لا أحد كان يعرف أراضيها خلال كل تلك السنوات، وبالرغم من أن صالح حاول كثيرا البحث والتقصى عنها لم نعرف فى بادئ الأمر هل من أجل الانتقام أو التوبة، لكن على الأغلب كان ميزان التوبة تجاه

سلمى هو الراجح من خلال قلقه وكلامه عنها، حتى أننى وفى أحد تلك الأيام المشؤومة والمكللة بالحزن ووجع الفراق دخلت على صالح فوجدته يبكى وبيده صورة سلمى، لكنه عندما رآنى أخفى الصورة وطلب منى ألا أبوح بما رأيته لأحد.

ومنذ ذلك الحين وصالح يعيش أياما تكسوها حالة الندم والألم، فقد غيّر هو زمانه وأبعد القدر الذى وضع فى طريقه سلمى. فكانت هى شمسه كل صباح ونوره الذى يرى به الدنيا وينسى كل همومه عند رؤيته لها، لكن وضع القدر شيئا آخرا لم يكن فى الحسبان، الحرب وأى حرب كسرت كل القواعد وحتى الصدف لتكون بين بلدين، بلد صالح وبلد سلمى من جهة أخرى، وكان بعض الأسرى من أقارب ومعارف صالح، مسجونين أسرتهُم العراق وهكذا صب صالح غضب كل تلك الحرب على سلمى، وكان العذاب هو السبب فى هروب سلمى ولم يُعرف لها أثر إلى يومنا هذا. حاول صالح الاتصال مرارا وتكرارا والبحث عنها فى كل مكان لكن دون جدوى. رحلت سلمى ورحل سرّها معها. وصمت الجميع بعد أن أكملت نرجس الحكاية التى بقيت لغزا لغاية هذا اليوم.

تنهد أسامة، وكأنه يخرج هذه الأنفاس من أخمص قدميه، كل نفس يعبر به عن عمر فات فى الظلام أمٌّ رحلت من دون وداع وأب دفع ثمن غلطته ندما وصمتا بين زوايا الغربة وفى كهوفها، حابسا نفسه فى العمل حتى لا يتذكر ماضيه وحب حياته وأم ابنه. ولكن بقيت الذكرى تلاحقه كظله وعبَر عنها فى كل عضلة من وجهه وكانت الضحكة مزيفة والفرحة كاذبة وأصدق المشاعر كان الحزن والألم، أمى التى كان يخفيها والدى داخله طوال هذه السنوات.

وبعدما أنهت نرجس الحكاية تاه الجميع فى صمت رهيب متأسفين متألمين على نهاية حب كان من المفروض أن تعيش وتكون مثالا لكل من حولهم. حينها طلب أسامة منها شيئا لم تتوقعه، كان أمرا ولم يكن سؤالا ينتظر من خلاله الجواب سواء بالرفض أو القبول:

- أمى من فضلك أريد مفاتيح بيتنا القديم، فأنا أعرف أن والدى مازال يحتفظ بها وحسب روايتك فإنه حبس أمى بداخله فترة اندلاع الحرب، وأنا متأكد من ذلك فقد سمعته عدة مرات ونحن بسويسرا يخاطبك ويذكرك بضرورة زيارة المنزل وتنظيفه وأن تحضر البستانى لينزع كل الأعشاب الضارة حيث كان يأمرك وكنت أعرف ذلك تماما وألاحظه من خلال لهجته وانتقاءه لتلك الكلمات وهذا ما أحسسته من نبرة صوته.

*****

لم يبق للكذب مكان، وأخذت الحقيقة تسطو وتحتل كل الحيز، حيز كان مزوقا بعبارات الكذب والتهديد والمنع. كل هذا كان يطوف حول اسم سلمى حتى كبر أسامة وكسر كل هذه الحواجز ودخل هذا الحيز الكئيب بعبارات الحقيقة والصدق ولم يبق لنرجس مجال للكذب، فجوهر القصة قُدم على صينية من ذهب أمام البركان الذى كان سينفجر داخل أسامة.

ذهبت نرجس متوجهة إلى غرفتها وتركت الثلاثة جالسين وأحضرت مفتاح المنزل وأعطته لأسامة وأضافت كلمة واحدة قائلة له:

- أرجو أن تُوفق فى مهمتك وأن تسامح والدك وتعذره، فقد كانت تفهم أسامة جيدا حيث أنها قرأت الأفكار التى كانت تجول فى خاطره قبل أن يقوم بتطبيقها، ثم أكملت كلامها:

- أعرف تماما دوافعك ورغبتك فى معرفة الحقيقة وماضى والدتك كيف أكملت حياتها من دونك ولماذا لم ترجع أو تبحث عنك؟ وأنا أحس بك، فقط ابحث عن الحقيقة وعن والدتك إن كانت لا تزال حية دون حقد على والدك وكره فلم يبق منه سوى الذكرى، وأرجو أن تكون الذكرى جميلة كما كانت فى السابق.
- أسامة: ولماذا لا تقولين كيف عاشت والدتى كل هذه السنوات من دوني، فبالرغم من أننى كنت أنام فى حضنك وبين عائلتك إلا أننى كنت أتوق لمعرفة أمى وكيف كانت تنام وحضنها فارغ أجبرها الزمن ووالدى على فراق وحيدها، عندما كنت أنظر إلى أحمد وهو يعانقك، عزة وهى تقبلك ينفجر داخلى بركان يوقظنى فى كل حركة وأسأل نفسى لماذا أنت وحدك تعيش الشتات؟ شتات العائلة، لماذا تدفع الثمن؟

لكن ولى زمن الصمت وسأبحث عن والدتى حية كانت أم ميتة، فإذا كانت حية فكل جواب لسؤال يجول فى خاطرى ستجيب هى عنه، أما إذا ماتت فعلى الأقل سأعرف ماضى والدتى التى حرمنى منها والدى من غير سبب. حرب قامت واندلعت ودفعت أنا ثمنها حينها سيبقى قبرها المكان الوحيد الذى أزوره والحقيقة الوحيدة التى أراها حتى لا تبقى هى الأخرى ذكرى فى مخليتي.

هذا ما ختم به أسامة كلماته ونهض وبيده المفاتيح يمشى بحركة متثاقلة وكأنه يجر صخورا وأثقالا وضعت على كاهله بعد كل ما سمعه، فقد التصق به ماضى لا يعرف كيف سيتحرر منه إلا بالعثور على والدته.

*****

مع أول إطلالة للشمس وهى تستضيف يوما جديدا، كانت غرفة أسامة شاغرة ترك كل شيء وراءه كما هوفسريره لا يزال مرتبا وغرفته لم تعتريها أية فوضى كما كانت دائما وكما عهدتها عائلته. فالفوضى فى أى مكان يكون فيه أسامة وكانت كلما تؤنبه نرجس أو والده يقول أن هذا يساعده على السكينة، لكن هذه المرة فالفوضى كانت فى أفكاره والدليل على ذلك أنه ترك كل شيء منظما وراءه.

ليس لغزا أو شيئا يستدعى الشرح أو الاستفسار أو القلق كما قال أحمد، فغياب أسامة عن البيت باكرا هو ذهابه إلى منزله القديم، بعد أن بحثت عنه عزة لينزل للإفطار وهذا ما ترك ثلاثتهم فى صمت وحزن لم يستطيعوا حتى الإفطار أو الكلام وقد كان القلق باد على وجوههم خاصة عزة التى كانت تنتظر الكثير من أسامة بعد طول غياب لكن للأسف جاء القدر وغير مجرى الرياح، فغيَرت بدورها مسار السفينة، لكن إلى أين؟ لا أحد يعرف!

*****

دخل أسامة ووضع أول خطوة فى عتبة المنزل كان منبهرا وحزينا منفعلا تتأرجح مشاعره بين الغضب والحزن بين الفرح والبكاء.

فتح باب المنزل وكأنه يفتح ذكريات الزمن الماضى أم ذكريات الزمن القادم، لا يعرف من أين يبدأ وما الفائدة؟

دخل وكأنه يدخل منزل غرباء أو هو الغريب فيه، يتفقد كل غرفة ولا يعرف ولا يتذكر أين كانت تجلس والدته وأين كان مكانها المفضل، كيف عاشت مع والده، كيف قضّيا أيامهما وذكرياتهما معا.

لكن شاء القدر أن أزور بيتنا بعد وفاة والدى فلو كان هو حيا لما تجرأت

وزرت هذا المنزل الذى لا أعرف حتى كم عشت فيه، ولدت أم لم أولد فيه أصلا.

ضحك أسامة على انتقائه لهذه الألفاظ وهذه الأفكار، رحل وهو يجر ماض مجهول لا يعرف عنه شيئا، من أين يبدأ وكيف ستكون نهاية كل هذا الألم.

توالت الأيام وأسامة على نفس الحال يزور كل يوم منزله يحاول أن يرمم كل مكان فى البيت... المطبخ، الحمام، فناء المنزل وهو فى الحقيقة يحاول أن يرمم ما بداخله من أحزان وفراغات لا تجد ما يملأها ويشفى غليله.

بينما أسامة منهمك فى ترتيب الغرفة وتنظيفها لاحظ حركة غير طبيعية فى بستان المنزل، ذهب ونظر من النافذة فلاحظ ظلا يتحرك باتجاه الباب، ودون تفكير خرج راكضا وفى لمح البصر وجد نفسه أمام الباب وقد تركه مفتوحا فوجد عجوزا جالسة على الكرسى تتأمل المنزل والأشجار وكأنها هى صاحبته تتفقد كل ما حولها تنظر بتمعن وحنين كبيرين، اقترب أسامة ببطء منها وخاطبها:

- صباح الخير سيدتي.

رفعت رأسها نحوه نظرت إليه وابتسمت دون فزع وغير متفاجئة مجيبة إياه:

- صباح الخير بنى كيف حالك؟، وكيف أنت مع هذا المنزل؟، أعرف أنك منهمك فى تصليحه (بعد أن تنهدت وتمتمت قائلة) لكن هل تستطيع تصليح ذكرياته؟

- عفوا سيدتى لكن من تكونين؟

- من أرسلك إلى هنا أيها الشاب، صالح؟ أم نرجس؟ كل عام يأتى

شخص ليصلحه أو ينظفه لكن بدون فائدة، آه... لست نفس الشخص الذى كان يأتى كل سنة فقد كان رجلا هرما ينظف بقايا أوراق الشجر المتساقطة خلال فصل الخريف أصادفه دائما يصلح الأبواب، والأبواب أُغلقت منذ زمن طويل يرمم الجدران وقد أخذت معها الابتسامة والفرحة وحتى الأحزان، ينظف البستان وكثيرا ما اجتمعنا فيه ولم تُعقنا لا أوراق الخريف ولا رحيق أشجار الربيع فكانت الكلمة الجميلة وحدها تكفى حتى لا نحس ببرودة الشتاء ولا حر الصيف، لكن آه... جاء القدر وغيَر ما غيَر وبدّل ما بدّل حتى أصبحت أزور هذا البيت المهجور فقط لأتذكر وأحن للأيام الخوالى وبعدها أرجع أدراجى هذا ما كان يطفئ بعضا من النار التى تحرقنى كلما زرت جدران هذا المنزل.

تحدثت وهى تنظر إلى المنزل بحنين لا يوصف، تسترسل فى الكلام وتعرف جيدا ما تقول وكأنها صاحبة هذا المنزل، وأسامة ينظر إليها منبهرا مستغربا لم يحرك ساكنا منذ أن بدأت العجوز فى الحديث حتى أنهت كلامها.

- من تكونين يا سيدتى فلم أرك منذ أن قدمت إلى هذا المنزل؟!
- وما الفائدة من التعريف بنفسى يا بني، سأرحل أنا بعد قليل وتُنهى أنت عملك وتأخذ أجرتك وتترك هذا المنزل، ولن تكون أى أهمية من التعريف والتعارف وحتى للحكاية أو الرواية لأنه وبعد قليل سيأخذها نسيم هذا اليوم أو تذهب فى مهب الريح ويأخذها لأماكن بعيدة.
- معذرة لكننى متشوق لمعرفة قصة أصحاب هذا المنزل وإلى أين رحلوا؟!

- لا داعى يا عزيزى فقد أخّرتك كثيرا عن عملك (كان أسامة يرتدى لباسا عاديا ملطخا من آثار العمل والتصليح ويحمل بيديه مطرقة ومعدات أخرى ما دفع تلك العجوز بأن تحسبه عامل تصليح..) سأذهب الآن أستودعك الله... وحاولت جاهدة النهوض وحقيبتها بيدها. وأسامة ينظر إليها وكأنه فى عالم آخر وفى لحظة استيقظ وكأنه كان فى نوم عميق.

- سيدتى إلى أين تذهبين من فضلك دقيقة!

استدارت وابتسمت نحوه قائلة: ماذا تريد فقد ولى زمن الحكايات سافر الأحباب ولم يبق لى سوى الذكريات وأخاف أن تذهب هى كذلك، أعمل يا ولدى الله يعينك لا أريد أن أعطلك أكثر وآسفة لأننى أزعجتك.

- أنا لست عاملا ولم آت إلى هنا لإصلاح المنزل أنا صاحب المنزل.

كان يتكلم والعجوز تمشى ببطء نحو الباب الرئيسى متجهة إلى الشارع ثم توقفت مصدومة عندما سمعت هذه الجملة وقالت:

- لماذا هل باع صالح المنزل؟! لا يهم فقد رحل من هم الأهم ولم يبق ما أحزن لأجله ولا أهمية لبقائه كذلك، مبروك البيت يا ولدى ثم أكملت طريقها وكأنها لم تسمع شيئا حتى وصلت إلى الباب الرئيسي.

- لا... ليس هذا أنا ابن صالح وسلمى.

- وكيف نعلق على هذه الكلمة، أو بالأحرى كيف نعلق على هذه الصورة التى رافقت هذه العبارات. كيف كان وقع هذه الجمل على تلك العجوز... تمنيت لو كان مشهدا لرأيتم وجهها وسمعتم نبرة صوتها وعرفتم من تكون ودون أن تعرّف بنفسها فهمتُ أنها تُكن أروع المشاعر لأمى وتعرفها جيدا!؟

- ماذا لا أصدق، ومن تكون؟ لا تقل أنك أسا.. ولم تكمل الاسم.
- أجل يا سيدتى أنا أسامة، ومن تكونين؟! أظن أنك قريبة والدى أو أمى لا أدرى لكن أظنك قريبة جدا منهما.
- أسامة... أسامة، وأصبحت تردد اسمه بتقطع وصعوبة وهى تتمايل ووجهها يتلون ويزداد اصفرارا، فهرع إليها وأمسكها وأخذها إلى الكرسى الذى كانت جالسة عليه وهو قلق يسألها:
- هل أنت بخير، ماذا جرى لك؟!. هل آخذك إلى الطبيب؟

والعجوز تنظر إليه والدموع تنهمر على خديها كأنها لآلئ وبريقها سطع من بعيد وانعقد لسانها. أين ذهبت طلاقة اللسان وفصاحته؟ فمنذ قليل كانت تحكى ذكريات هذا المنزل وأيامها فيه رغم مرارة أحاسيسها إلا أن عيناها كانت تبتسم وهى تتذكر كل أفراده، لكن عند ذكر أسامة لاسمه تحولت الذكريات إلى دموع وأخذت هذه العجوز يد أسامة واقتربت منه وهى تضع يدها على وجهه وتمسح بالأخرى على رأسه وأخذت فى تقبيله وارتمت فى أحضانه بجسمها الضعيف. فأخذها فى حضنه وبين ذراعيه القويتين وهو يخاطبها:

- أحس أنك تعرفين والدتى من تكونين يا سيدتي؟!
- أعرف ألا أحد أخبرك عنى لكن والدتك أختي، أختى الوحيدة، أنا خلود صديقتها الوحيدة.

وما إن سمع أسامة هذا الاسم حتى أجهش بالبكاء، كيف لا أعرفك وأنت من ساند أمى فى محنتها، لقد حدثتنى أمى نرجس عنك. كيف لا أعرفك يا خالتى وأنت أعز صديقة لوالدتي.

- آه، كم تمنيت أن أسمع هذه الكلمة وظننت أنى لن أسمعها أبدا الحمد

لله، الحمد لله. ثم ارتجلا إلى البيت ودخلت خلود وهى تحن إلى كل ركن من أركانه وقد عاد بها أسامة لسنين خلت، أين كانت تزور سلمى وتحييان ليالى السهر والسمر والرفقة والزيارات، أيام الأسرار والمحادثات؟ رحلت كلها بلا عودة.

*****

جلست خلود وأسامة بعد أن أفاقا من المفاجأة. حينها بدأت تروى وتحكى له كل ما تذكرت لا بل كل ما كانت تحن إليه وحكايات كل الأيام والسنين من يوم رحلت سلمى وعائلتها إلى الكويت والتقت بخلود أول مرة إلى آخر يوم رحلت فيه سلمى من هنا تاركة كل شيء دون وداع.

- وبقى الاثنان يلتقيان كل يوم وفى نفس الموعد دون أن يخبر أحدا وكأنه وجد المتنفس الوحيد له وكل الأجوبة عن أسئلته التى بقيت دون إيضاح طول هذه السنوات، بل وجد أسامة الأجوبة على أسئلته دون أن يطرحها فرفيقة درب سلمى هى بدورها وجدت كل المتنفس وما كانت ترغبه فيه وتتمناه، وجدت من تحكى له عن سلمى دون تهديد وخوف بفخر واعتزاز، رغم أن سبب كل هذه المشاكل التى كانت نتيجتها تشتيت عائلة وفراق أم عن ولدها وحرمانه منها هى الحرب وأى حرب. وهكذا مضت أيام وأسامة وخلود يلتقيان دون اتفاق مسبق وبشوق كبير حتى أكملت له كل القصة.

هكذا يا عزيزى كانت سلمى حياتها وقصتها، وكل أيامها وسنواتها فى هذه البلاد إلى يوم تخطيطى لهروبها، وهناك أخذتها ودون تفكير إلى السفارة الدنمركية حيث كان يعيش معارف عائلتى فى الدنمارك، صحيح أنهم أجانب لكنهم نعم الناس والأهم أننى فكرت فى أنهم آخر الأشخاص

الذين يفكر والدك فى أن تلجأ سلمى إليهم خاصة وأننى وبفترة وجيزة من رحيل أو بالأحرى هروب سلمى كان مقررا أن أهاجر برفقة زوجى بسبب عقد العمل الذى حصل عليه فى أمريكا.

وهكذا كانت تلك آخر ليلة أرى فيها سلمى وبعدها بقيت حوالى شهر ونصف أو شهرين ونحن نهاتف بعضنا، وكنت دائما أطمئن عليها ولكن دون سابق إنذار قطعت الاتصال بيننا وعرفت بعدها أن العائلة التى كانت تمكث عندها رحلت إلى كندا. وعندما راسلتهم بعد بحث طويل وبواسطة زوجى ومعارفه عرفت أنهم تركوا سلمى فى الدنمارك حيث استأجرت شقة هناك. ولم أعرف بعدها شيئا إلى يومنا هذا ولن أخبرك بشوقى وخوفى عليها والنار التى كانت تحرق كل خلية من روحى وأنا أجهل مصير والدتك. والشخص الوحيد الذى أرى فيه سلمى اليوم يطفئ تلك النار بعد سنوات هو أنت يا عزيزي، ثم حضنته ووجهها ممزوج بالفرح والحزن فرح للقائه وحزن لوجوده ومقابلته فى هذه الظروف.

- وأنت يا خالتى كيف رجعت إلى هنا ومع من؟

- آه يا عزيزى بعد أن كبر ابنى وابنتى فى الغربة وترعرعا هناك لم يستطيعا العودة من المهجر، عكسى أنا ووالدهما فشوق العودة إلى الديار كان هاجسنا الوحيد وبقيت عقلية ابنى وثقافتهما التى كبرت فى ظل الأفكار الأجنبية خاصة وأننا عشنا مدة طويلة فى أمريكا ومنها رحلنا إلى البرازيل، هناك أنهى زوجى سنوات التعاقد ولكن فوجئنا برفض ولدى العودة إلى أرض الوطن، وهكذا قررا العيش والاستقرار فى المهجر وقررت أنا وزوجى الرجوع إلى الديار وزيارة ولدى بين الحين والآخر أو زيارتهما لنا. وهكذا رجعت واسترجعت

ذكريات زمن مضى لكنه لم يمح ولن يمحى أبدا من ذاكرتى ويبقى حكاية لا تنتهى خاصة بعودتك أنت يا عزيزى وأنت من سيأخذنى إلى حقيقة والدتك وأراضيها. وأعرف جيدا وأنا متيقنة أنك ستجدها إن شاء الله.... ثم سكتت برهة ورافق صمتها تنهيدة طويلة تنم عن اشتياق وحنين أسف وألم. ثم رفعت رأسها ببطء ونظرت برهة إلى أسامة وأخرجت من حقيبتها ظرفا متوسط الحجم قائلة:

- كل هذه الأيام وكل ما رويته عن والدتك لن يُختم هكذا وإنما سينتهى بشيء عزيز جدا خفت أن يبقى عندى وأرحل للأبد ولا أستطيع أن أفى بوعدى لأوصل لك هذه الأمانة، تفضل هذه لك.
- أمانة لي؟! ما هذا؟!
- فى لحظة وداعنا أخرجت سلمى من حقيبتها هذه الرسالة وقالت لى بالحرف "الشيء الوحيد الذى أستطيع أن أبرء به نفسى أمام ولدى هذه الكلمات وأتمنى أن يفهمها ويدركها. خلود هذه أمانة لأسامة فقط ليعرف أن أمه لم تتركه اختيارا وإنما إرغاما لم تتركه فى فرح وإنما فى ضيق، والقرار يعود له، فقط قولى له بأنها كُتبت بالدم فهى حروف الدم" وسلمته الرسالة، وقامت وتركته مبهورا حائرا لا يعرف ماذا يفعل سوى النظر إلى ذلك الظرف.

*****

فتحت الرسالة وأنا أرتجف مذهولا مستغربا حروف مكتوبة بيدها بل مخطوطة ومرسومة بيد أعز الناس أكبر مفاجأة وإنما هى أكبر نكتة، يدور الزمن لألتقى برفيقة أمى الوحيدة وأقرأ رسالة كتبت بسبب ظلم سلط عليها لا أعرف حتى سببه دمر كل شيء وأولهم أنا، كل شخص لملم شتاته

وأنا بماذا سأجمعه برسالة ماذا ستفعل لي؟ ترد لى والدتى أم حزن والدى وندمه... فتحها وبدأ يقرأ وهو يرتجف:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

إلى من تركت قلبى له ورحلت

بعد الصلاة على الحبيب الرسول- ﷺ - ماذا أقول لابن فرقتنا الحرب، ابن تمنيت رؤيته رجلا صلبا يكبر أمام عينيّ أجمل وأروع أمنية، أمك أنهكها التعب وقست عليها الظروف، إذا قدّر وقرأت هذه الرسالة أو النصف رسالة لا تلمنى ولا تلون قلبك بكرهى وجعله فقط للعتب، من ابن ترك صورة وذكرى رسمها هو وكتب فى سطرها الأخير أم ماتت بقدر من الله والحمد لله وقد رضينا بما كُتب وأنا رضيت حتى يكبر ابنى ويصبح رجلا ويقول حُمّلت أمى ما لا تحمله الجبال وقُيدت أجمل المشاعر بحبال، قسمت الروح بين الضنى وليد أحشاءها وبين كرامة وطنها أكلت من أرضه ولا عجب وقالت ألقاك ابنى فى الجنة وأفديك بروحى أرض أجدادى ولو حُمّلت بكل الذنب عرا.... "

ختمت الرسالة بحرفين ومُزقت الرسالة إلى النصف. وقرأ أسامة هذه الكلمات وهو يجهش بالبكاء وبصوت عال يصف ويترجم حالة اليأس بل الاشتياق والرغبة الحنين الظلم والقهر وحتى الحب والأسى، كلمات تركتها والدته ووضعت فيها كل المشاعر، لكن الرسالة غير مكتملة وممزقة عر... وهذا يدل على أن والدته حسب ما فهم كتبت رسالة كاملة ثم مزقتها وقدمت لخلود نصفها، وما هى إلا لحظات حتى سمعت خلود صوتا يناديها:

-خالتى خلود تعالى أرجوك.

*****

كان الاثنان جالسين وكأنهما فى جنازة لا يتكلمان جامدين أمام رسالة لم تفهم، رسالة مزقت إلى نصفين، وتنتهى بحرفين غير مكتملين.

لا يكفينى لغز رحيل أمى وفراقى عنها حتى أصدم بهذه الرسالة، لم أعرف حتى معنى كلمة أم لولا نرجس حنانها وعطفها على ومع هذا حُرمت كذلك منها وسافرت لسويسرا أم قبلتنى بطيب خاطر وبإنسانيتها المتناهية، كيف يا خالتى فأنا أعيش فى دوامة لغز رحيل أمى المحير، لا أعرف حتى من أين أبدأ البحث ومن أسأل.

- آه لا أعرف، فأنا متفاجئة فلم أفتح هذه الرسالة حتى قرأتها اليوم وأمامك ولم تصارحنى أو تخبرنى سلمى بشيء.
- ألم تقولى بأنها من أعز صديقاتك، بل هى أختك حسبما فهمت من قصتها.
- صحيح، لكن لا أعرف فهناك ما كان يجول فى خاطر سلمى لم تخبرنى به، أكيد كانت خائفة من شيء معين أو على الأغلب خائفة على وأكيد من صالح، ثم التفتت لأسامة قائلة:
- ولماذا يا عزيزى كل هذا الاضطراب ممكن أن هذه الرسالة بالصدفة جاءت هكذا، ممكن أن سلمى كتبتها فى آخر دقيقة ولم يتسنى لها أن تحضر ورقة كاملة أو لأى سبب غير مهم وأنت تهول الأمر.
- لا يا خالتى إذا كان ما تقولينه صحيحا فإن أمى ستنهى هذه الرسالة بوداع أو على الأقل بكلمة تامة كاملة المعنى. لكنها تعمدت أن تنهيها بحرفين "العين، والراء" ومزقت الرسالة بشكل طولى فى وسط هذه

الكلمة بحيث إذا ما ألصقتها بنصفها الآخر تكتمل، والأهم من ذلك أنها ذكرت فى رسالتها عبارة الرسالة أو النصف رسالة وهى تلمح أنها تركت النصف الأول لي، والآخر لشخص آخر. تفحصيها جيدا يا خالتي. فأنا متأكد من أن هناك لغزا فى هذه الرسالة.

- لا أعرف يا عزيزي، لكن... ماذا تنوى أن تفعل؟.

- قبل كل شيء، أنوى أن تدلينى وتساعدينى على معرفة أشياء كثيرة أولها يوم ذهاب أمى إلى الدنمرك وعنوان أصدقاءك الذين ذهبت إليهم. ومن ثمة سيبدأ مشوارى فى البحث عن والدتى أو على الأقل ما كانت تقصده فى هذه الرسالة.

وهكذا قرر أسامة البحث عن والدته، وهى الفرصة التى أهداها له القدر بعد حرمان طال سنين أولها ببعث خلود كهدية لم يكن ينتظرها، والرسالة التى فتحت له آمال أخرى للعثور عليها أم أنها مجرد رسالة فقط كتبتها لتشفى أمه غليلها أو لتبرئ نفسها، وبالتالى تكون مجرد رسالة ليعيش هو على ذكرها المهم أنها تركت له شيئا معنويا حتى لا يتذكرها به.

*****

- كيف تقول هذا؟ تذهب للدنمارك، هكذا ودون سابق إنذار (نرجس مخاطبة أسامة وهى مستغربة وفى أوج غضبها).

- أجل يا أمى فقد ضاع ما ضاع من عمرى ولن أفوت هذه الفرصة. أو لم يكفى ما أخبرتكم به، أحمد أخبرنى ماذا ستفعل لو كنت مكاني، وأنت يا عزة هل تبقين جامدة بلا حراك، تبكى حظك وقدرك وكلما حزنت تخرجين هذه الرسالة لتنسى بها همومك أو لتزيدها. أرجوكم افهمونى هذه فرصتي.

- أحمد: لكن يمكن أن يصادفك الاحتمال الأسوأ يا أسامة وكل الذى ستبحث عنه مجرد سراب.
- أسامة: سراب، وما رأيك أنت فى الوهم الذى كنت أعيش فيه أتنقل بين عائلتين ألتمس الشفقة، أبكى فراق أمى نرجس وأحاول التعايش مع "نورا" رحمها الله، هذا وحده كان عذابا لا يُنسى وأن أتناسى وجود أم لا أعرف حتى إن كانت ميتة أم حية تعيش عذاب فراق ابنها كما كنتُ أعيش.
- نرجس: عشت العذاب والفراق لأنك كنت تتنقل بيننا، وأنا من كنت أعتقد أننى أمك بل أنت فلذة كبدى أحببتك أكثر من أحمد وعزة والآن...!
- أسامة: لا... لا يا أمى (وجلس بجانبها يقبل يديها) فأنا متوتر ولا تعرفين النار التى تشتعل بداخلى تحرقنى وتحرق كل ذكرى جميلة عشتها. لقد كبرت فى جو الحيرة والألم، ولا أعرف حتى لماذا لم يسمح لى بذكر أمى أو السؤال عنها وبقيت أعيش الخوف والحسرة.
- نرجس: اسكت، مهما يكن فقد كان والدك يتعذب لفراقها وندم بعد رحيلها ودفع الثمن بعد ذلك غاليا أقله أنه رحل نهائيا من بلده ليعيش غريبا فى بلد أناس لا يشاركهم فرحته أو حزنه ولا حتى أبسط الأمور وكان أكبر عقابا له ناهيك عن الحرب التى دمرته ودمرت شعبه.
- أسامة: كان أكبر عقاب لوالدى وتعذّب لفراق والدتي، لا تجعلينى أضحك يا أمى (قالها بسخرية) المهم لقد قررت ولن أتراجع وسأحاول أن أضرب عصفورين بحجر واحد سأحاول فتح مكتب صغير أو فرع لشركتنا هناك. فأصدقائى فى سويسرا لهم علاقات فى الدنمارك، وأحمد يسيّر هذه الشركة ويحاول التنسيق بالتعاون

معي، وأنا متيقن بأننى سأعرف الحقيقة فى أسابيع أو أشهر لا يهم ومهما ستكون مهمتى صعبة سأصل بإذن الله لمبتغاى فى العثور على والدتى أو على الأقل اقتفاء أثرها هناك.

- عزة: لا أفهم، ستذهب للغربة والعذاب مرة أخرى وهذه المرة أنت من قررت وعقدت العزم على الرحيل من دون أى ضغط ولا نعرف إن كنت سترجع أم لا خاصة مع فتح فرع هناك، وانفجرت باكية وخرجت جارية من صالة الجلوس.

من يعلق على ما قالته عزة والكل يعرف الحب الذى يجمعهما وقد كان ينوى أسامة الزواج بها والاستقرار بعد عودته وقبل وفاة والده، وأخبر صالح نرجس وطلب منها يد عزة قبل عودتهم ولولا الكلمة الفاصلة للقدر بموت صالح وما جرى من أحداث لكان أسامة وعزة مخطوبين على الأقل.

كل هذا لن يغير قرار أسامة، سيبقى أسابيعا أو شهرا على الأكثر يحاول أن يصفى بعض الأوراق ويجهز للسفر إلى الدنمارك بحثا عن أمل ولو كان ضعيفا المهم أن يربطه بأمه أو ماضيها.

*****

حان وقت الرحيل وأسامة حضّر لكل شيء ولم يبق سوى الوداع.

- نرجس كانت الأم التى حضنتنى وعوضتنى كل الحنان ولم أحس يوما بمعنى الحرمان أو بكلمة يتم التى رافقت كل إنسان فقد والدته أو حرم منها لأى سبب كان، أما أحمد الذى كان نعم الأخ يتقاسم معى كل شيء وأبسط شيء ويحرم نفسه من كل ما يحبه متظاهرا بكرهه وعدم الاهتمام حتى أحظى أنا به قاسمته حضن والدته وحبها ولم يتذمر يوما. أما عزة فهى الحب الذى ولد يوم ولدت وأنا أنظر

إليها بين ذراعى والدتي. عزة التى كان عراكنا يشرح غيرتى عليها، تضارب آراءنا التى كانت تفسر حبى لأفكارها وتعلقى بحدَتها غربتى وفراقى عنها كانا دائما يحكيان عن شوقى إليها. لكن للأسف يجب أن أرحل لأعرف ماضى حتى أعيش الحاضر.

وهكذا وبعد أن ودع أسامة كل واحد على حدة خاصة عزة بعد أن سمعت منه تلك الكلمات وعبر لها عن حبه صراحة، وطلب منها أن تنتظره مرة أخرى (وأكمل قائلا):

- وإذا رفضت فهذا من حقك بل يجب أن تعرفى أن حبى لك لن ينقص وإنما يزيد مع العذاب والفراق فيكون هو الأكبر ويحضننى أينما ذهبت ولك القرار يا عزة سأذهب للبحث عن مستقبل لا يشوبه أى غموض ولم يسبقه ماضى مبهم وإنما ماضى شفاف افتخر به أينما أكون.

كل هذا لم يقابله إلا الصمت صمت أحمد وبكاء نرجس أما عزة فلم تنزل من غرفتها بعد أن تكلم معها أسامة وتركها هناك لتودعه من وراء النافذة بقلبها ودموع تنهمر للمرة الثانية ودون أن يراها وهى تتذكر أيام سفره لسويسرا.

مرة أخرى وفى نفس الأجواء، حقائب ومطار طائرات تحلق وتحط تاركة مشاعر المسافرين تتأرجح بين فراق رافقه وداع والطائرة تحلق تاركة كل الأهل والخلان، بين انتظار لعودة الغريب والحبيب منتظرين أن تحط سفينة الجو مرحبين بها غير ساخطين. وهكذا كانت أول خطوة لأسامة على أرض الدنمارك للبدء فى البحث.

كيف سيبدأ وكيف سيصل إلى مبتغاه؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام القادمة.

الفصل الرابع

كان مطار الدنمارك كأنه خلية نحل. أول خطوة يبدأ منها أسامة ينظر متأملا باعتبار أن مطار مدينة كوبنهاجن من أكبر المطارات الدولية فى البلاد ويخدم عدة مناطق وحتى السويد.

ترى أصنافا من الناس بين القادم من السفر والمتأهب للرحيل وتسمع ضوضاء مختلطة بين صراخ الأطفال وحديث المسافرين من جنسيات مختلفة، كل هذا وأسامة ينظر حائرا وقد اعتراه الخوف واليأس وهو يبدأ من نقطة ما قبل الصفر ليدخل فى متاهات حكاية كانت مخبأة بين صفحات القدر، مسجلة بين سطور ذكريات الزمن القادم.

هذا كله كان يجول فى خاطر أسامة وهو ينتظر حقائبه على البساط المتحرك، هذه الأخيرة التى أبت أن تتركه وكانت رفيقه الوفى فى كل مكان حاملا بداخلها فى الماضى شوقه وعذاب فراقه عن نرجس وأحمد وعزة. أما اليوم فهو مثقل بالأحزان والهموم مغامر بين معرفة الحقيقة أو الركض وراء سراب.

مدينة كوبنهاجن من أروع المدن الدنماركية والأوروبية بما تملكه من ميزات وأسامة ينظر متجها إلى أحد فنادقها، مدينة جمعت بين سحر المكان وتألق المناظر السياحية المزينة بها كدليل على حضارة مجتمعها وتطور فكرها وثقافتها. كل هذا وأسامة تائه غير مبال بكل هذه المناظر

لما يحمله قلبه من أثقال وأوجاع جلبتها له المفاجآت من غير سابق إنذار.

استلقى أسامة على سريره فى الفندق الذى حجزه وعيناه ملتصقتان بالسقف وفكره مشوش ينظر إلى الأعلى وكأنه يقرأ الحل أو ما يخرجه من كل هذه الدوامة وكأن هذا السقف يملى عليه ما سيفعله هل سيجد والدته؟ أو على الأقل من يدله على الأماكن التى عاشت فيها طيلة هذه السنوات؟.

خرج أسامة فى اليوم التالى بعد أن نال قسطا من الراحة، وطمأن أهله بوصوله سالما إلى الدنمارك يتجول فى شوارع المدينة المغطاة بالثلج وكان شهر يناير من عام ٢٠٠٥ ، حيث كانت مكسوة وكأنها عروس يجوبها سكانها بين الذاهب والقادم من أبناءها والمهاجرين، لكن أين يصنف أسامة بين هؤلاء وهو يتعرف مرة ثانية على بلد آخر التجأت إليه والدته هربا وخوفا محرومة من فلذة كبدها علّه يجد الجواب عن كل أسئلته متمنيا حدوث معجزة للعثور عليها حتى لا يرجع لأهله خالى الوفاض فى مغامرة يعتبرها رهانا بينه وبين نفسه.

مر أسبوع وأسامة يحاول بدأ حياته من الصفر فى هذا البلد فلم يكن ينتظر كل هذه الأحداث المتسارعة موت والده، ذكرى والدته وظهور خلود فى حياته دون سابق إنذار وأكثر من كل هذا خطوبته من عزة التى أجّلت أو التى لم يعلن عنها رسميا.

وعاد أسامة أدراجه إلى الغربة ليبحث عن ذكرى والدة لا يعرف حتى إن كان سينجح فى العثور عليها أم أنه سيخسر كل شيء وكل الناس الذين أحبوه، دون أن يصل إلى مبتغاه وبهذا يكون بعناده قد أضاع الكثير.

أقام أسامة فى البيت الذى استأجره بهذه البلاد التى عرفت بأعلى مستويات المعيشة، بلد له سمعته فى العالم من خلال مناطقه السياحية

وهندسته المعمارية من الخارج والانعدام الظاهرى للفساد ومناداته بالمساواة فى العالم ضمنيا وبهذا صنف مجتمعه بأسعد شعوب العالم.

فهل سينجح أسامة فى بحثه ويكون هو كذلك من أسعد الأشخاص فى تحقيق أمنيته.

حاول أسامة أن يكون قريبا من العنوان الذى دّلته عليه خلود وكانت تسكنه والدته. ومن هنا كانت نقطة البداية بعد أن ضمن الاستقرار وبدأ فى البحث عن الأشخاص الذين لجأت إليهم سلمى بإعطائه عنوانهم علّه يجد الجواب عن سؤاله الذى حيره طيلة هذه السنوات، واتجه فورا إلى العنوان المكتوب على أجندته.

كان الحى جميلا ويقع فى أحد شوارع كوبنهاجن ويدعى شارع كوبماجيرجاد، ويعتبر ثانى شارع للمشاة بعد شارع ستروجيت، يتميز بمتاجره الأنيقة والمتعددة وحتى المتوسطة المستوى ومحلاته المستقلة وكان بذلك يشبع رغبات زبائنه بجميع مستوياتهم.

- آه، وأخيرا وجدتك الحمد لله، وأخرج بعدها أسامة تنهيدة طويلة متحدثا مع نفسه ويداه ترتعشان وقد وصل أخيرا إلى العنوان الذى دلّته عليه خلود. وبعد السؤال والاستفسار خاصة وأن الحى تغيّر بعد كل هذه السنوات وأخذ يدق الباب ببطء.
- نعم... من تكون؟ (باللغة الدنماركية)
- صباح الخير- بعد أن فتح لأسامة شاب قوى البنية يميل لون بشرته إلى السمرة وعيناه عسليتان، كان شابا وسيما وتحمل ملامح وجهه الدم العربي- أرجوك هذا بيت السيد "سعيد" أعرف أنك تتكلم اللغة العربية فقد أخبرتنى الخالة خلود أنك تنتمى لأصول عربية ولن أجد

مشكلة فى التكلم معك.

-أجل صحيح أتكلم العربية لكن السيد سعيد باع لوالدى المنزل منذ زمن ورحل.

- رحل، إلى أين؟

- لا أعرف (وحاول غلق الباب لكن أسامة صده وفتحه بسرعة وبطريقة مؤدبة).

- أرجوك، سؤال أخير: هل والدك يعرف صاحب المنزل الذى باعه إياه أو تعرفه أنت؟

- لا أتذكره جيدا، لكنه كان صديق والدى باعتباره من الجالية العربية المقيمة هنا ووالدى كذلك من أصول عربية.

- ألم تتذكر أنه كانت تقيم عنده امرأة غريبة عنهم ليست من العائلة؟.

- لا، لم أر عائلته أبدا، أما عن والدى لا تتعب نفسك فى السؤال عنه فقد توفى السنة الماضية.

- آه متأسف، أشكرك كثيرا لأنك أعطيتنى من وقتك.

- أغلق الشاب الباب، وعاد أسامة أدراجه يمشى وكأنه يجر أثقالا أو أطنانا من الهموم والأحزان فأول خطوة له أغلقت كل أبواب الأمل فى العثور على والدته، عاد إلى منزله واستلقى فورا على السرير وأخذ الهاتف دون تفكير وحاول الاتصال بعزة لكنها لم تجب.

نظر بعدها أسامة إلى هذا الأخير قائلا: - حتى أنت يا عزة، حتى أنت لا ألومك معك كل الحق فلا أحد يصبر على كل هذا وأنت صبرت بما فيه الكفاية لكن اتصلت فقط لأننى اشتقت لك كثيرا.

فى هذا الوقت كانت عزة تنظر إلى الهاتف وهو يرن رقم بلد أجنبى

وقد تعمّدت عدم الرد وانهمرت الدموع من عينيها وهى تتذكر، وما فائدة الذكرى فقد قررت ولن تتراجع.

- نرجس (بعد أن دقت الباب): سعاد تحت تنتظرك، ثم تقدمت نحوها فوجدتها وكأنها فى عالم آخر صور أسامة متناثرة على السرير وهو صغير مع عائلتها رسالاته، هداياه.

فهمت نرجس كل شيء وأخذتها فى حضنها قائلة:

-لا تنزعجى يا قرة عيني. ألم تتعلمى من القدر حتى الآن فقد غير كل شيء فى لحظة وانقلب حالنا بعد طول انتظار، فلا تيأسى وانتظرى قد يغير القدر كل شيء وترجع المياه إلى مجاريها بين لحظة وأخرى.

وما إن سمعت عزة هذه الكلمات حتى ازداد ألمها ولم تستطع ترجمته إلا بضم أمها بقوة والبكاء بصوت واضح حتى تترجم كل المشاعر المتناقضة داخلها.

أما أحمد فهو فى الشركة لا يعرف حتى وقت للراحة فقد ترك أسامة كل شيء على عاتقه خاصة بعد أن شاركه وكبرت الشركة، ففى كل يوم وفى وقت متأخر يرجع أحمد إلى المنزل مكسور الحال متعبا لا يستطيع حتى الأكل أو التحدث مع والدته أو الجلوس معها، فالتقليد الوحيد الذى أصبح يتّبعه أحمد ومن دون تحضير مسبق هو الدخول إلى المنزل لتقبيل والدته والجلوس معها لدقيقتين خلالهما ينزع حذاءه ويضع محفظته على الكرسى ويصعد فورا إلى غرفته للنوم. كل هذا ونرجس هى القبلة لهؤلاء الثلاثة، كل واحد فيهم فى عالمه الخاص لكن وللأسف دون فرحة أو طموح ونرجس تراقب وتلاحظ من دون تعليق لكن بألم وحسرة.

*****

مرت الأيام وأسامة فى أخذ ورد يتردد بين الرحيل والبقاء، بين التمسك بأمل ضعيف يتضاءل كل يوم وبين المكوث والمحاولة لعل القدر يجيبه عن كل تساؤلات الماضي، وكان أسامة دائم الاتصال بأحمد يخبره عن كل خطواته وكيف بدأ البحث فنصحه بالبقاء والتردد دائما على منزل هذا الشخص ومحاولة التقصى والسؤال فمن الممكن أن يجد طريقا إلى هؤلاء الأشخاص.

وفى خضم الحديث حاول أسامة معرفة أخبار عزة ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال السؤال عن نرجس وعن أحوال الشركة لكن أحمد كان يفهمه وأجابه بطريقته بأن حالة عزة لا تسر حبيبا ولا عدوا وكل يوم فى تدهور ومعزولة تماما عن جميع الناس وحتى على أعز صديقاتها وأقاربها.

- أحمد لأمه: اليوم تحدثت مطولا مع أسامة (كان جالسا مع والدته وعزة، ومن يراها يحس بأن قلبها ازدادت دقاته يكاد يتوقف وتغير لونها وأصبح شاحبا. وبقى أحمد ونرجس يتحدثان وأطال الحديث عن أسامة وما كان لعزة إلا الصمت والنظر إلى التلفاز، غير مبالية أو توحى للذين معها بأنها كذلك، لكن الحقيقة تقول غير ذلك فهى تتشوق لسماع اسمه وأخباره أكثر من الجميع).

*****

كان الجو باردا والسماء مغيمة تحمل بلونها الرمادى ثقلا يوحى بسقوط المطر، ثقل طالما حمله أسامة فى صمت واليوم وبعد أن فجّره ولم يستطع لمّ كل ذلك الشتات الذى بداخله متمنيا أن يجد من يجيبه عن كل أسئلته ولا يعرف لهذا الطريق نهاية سوى الصبر. كل هذا وأسامة يشرب قهوته تائها فى المناظر من حوله محاولا التفكير فى إيجاد الحل للوصول إلى مبتغاه. وبعد أن أكمل فطوره خرج واتجه فورا إلى بيت ذلك الشاب مسرعا دون

تردد وطاردا شبح الخوف والخجل فهو فرصته الأخيرة فى معرفة أى خيط ولو كان رفيعا يوصله إلى والدته علّه يجد الإجابة هذه المرة.

دق أسامة باب المنزل فخرج له نفس الشاب وللمرة الثانية وما إن رآه وقبل أن يسلم عليه صدمه هذا الأخير قائلا:

- ماذا تريد؟ ألم أقل لك أن السيد باع المنزل لوالدى وهذا الأخير قد توفى، ماذا الآن...؟

- أسامة: أرجوك قبل أن تكمل أعطنى من وقتك نصف ساعة إذا تفضلت على ثم افعل ما تريد. فقط أنصت لحكايتى وبعدها لن أعاود إزعاجك فأنا غريب عن الدنمارك، وما إن سمع ذلك الشاب توسلات أسامة وهو يتأمل منظره رق قلبه لتلك العبارات التى ذكرها فتغيرت تجاعيد وجهه الغاضب واسترخت عضلاتها وبعدها فاجأ أسامة بدعوته للدخول إلى منزله حتى يتمكن من فهم قصته.

وبهذا فتح المجال لأسامة وأعطاه فرصة جديدة لإحياء الأمل الذى كان سيموت، وروى للشاب القصة كلها وتحولت الدقائق إلى ساعات، وما إن سمعها وبعد أن أنهى أسامة حكايته استرخى ونظر إليه وسكت لفترة وهز رأسه وهو يبتسم مخاطبا إياه:

- أولا أدعى ريشارد" وتشرفت بمعرفتك، وثانيا لا تخف ولا تحزن مهما يكن فأنا إنسان وأعرف معنى أن تكون يتيما. قهرنى هذا الإحساس رغم أننى عشت مع والدي، فترة الطفولة حتى كبرت توفيت أمى منذ ست سنوات والعام المنصرم لحقها والدي. كيف أنت الذى لم تتعرف على أمك.

- ولدت فى الدنمارك من أب لبنانى مسلم وأم فرنسية، وأنا مسلم مثلك

فقد كان أبى شديد الحرص على زيارة لبنان وكان يأخذنى برفقته حتى أتعرف على أرضه وأصدقائه صحيح أننا لم نكن نذهب عندهم بشكل مباشر حيث كنا نقيم فى فنادق بلبنان لأن جدى وجدتى توفيا وأبى له أخت وحيدة لم تتقبل فكرة زواجه من أجنبية ولهذا انقطعت العلاقات بينهما تماما، وبقينا نزور لبنان كل عام للتنزه والسياحة وزيارة قبر والديه. لكن منذ عشر سنوات لم أذهب إلى هناك، أما السيد سعيد فهو صديق والدى منذ سنوات وعندما أخبرتنى بقصة أمك استغربت لأنه يوجد احتمالين لا غير، إما أن يكون السيد سعيد أخبر والدى بالقصة وطلب منه عدم البوح أو أنه أخفى عنه أمرها خوفا من كشف سرها ونشره، لا أدرى لأننى لم ألتق يوما بها على الرغم من أن والدى بقى على اتصال بصديقه لكن أنا لم ألتق به منذ زمن ولا أعرف شيئا سوى أنه أراد بيع المنزل وكان مستعجلا فاقترح عليه أبى شراءه لمساعدته. وبقى المنزل مغلقا حتى توفى والدى ولم أطق العيش فى بيتنا بمفردى فقررت الانتقال إلى هنا وهذا من حظك وأنا أعيش فيه منذ خمسة أشهر. ثم تنهد وامتزجت أحاسيسه بمشاعر متناقضة وهو ينظر إلى أسامة وقد كان مكسور الخاطر.

مر شهر... وبقى أسامة بين أخذ ورد حاول خلاله أن يلتفت قليلا لعمله وترتيب المكتب أو الفرع الذى قرر تأسيسه، وكانت مكالمات ريشارد حافزا وقوة لأسامة فقد كان يخبره بكل خطوة يقوم بها حيث كان مهتما كثيرا بقضيته ووعده بأن يساعده وهذا ما زاد من حيرة أسامة ومدى اهتمام ريشارد به وبقصته حيث أخبره هذا الأخير بأن يهتم هو بإتمام إجراءات تأسيس مكتبه ويترك له مهمة البحث عن منزل صديق والده. هذا الرجل

الذى آوى سلمى ومن هنا بدأت تتكون علاقة أو يمكن تسميتها بالصداقة بين ريشارد وأسامة فقد كان يزوره بين الحين والآخر ثم توطدت العلاقة بين زيادة الزيارات وتكرارها وتعرف الاثنين على بعضهما أكثر فأكثر، وكان ريشارد السند والهدية التى بعثها الله لأسامة فى غربته ومحنته كما كان دائما يقول لأحمد حين يتصل به لإعلامه بآخر تطورات بحثه.

حاول أسامة تجاوز همومه وغربته وحتى عذابه لأن حالته أصبحت تسوء أكثر حتى وصلت لدرجة اليأس والعيش من أجل العيش لا غير. ومع هذا فـريشارد كان يشجعه دائما لأنه يرى معانى اليأس فى نظرته ويحسها فى نبرة صوته خاصة وأن أسامة قد أخبره عن علاقته بعزة وأنه كان ينوى الزواج بعد أن أقنع والده بالعودة إلى بلده وها هو يرجع مرة أخرى لنقطة الصفر وبهذا قطع كل أمل بالتواصل مع عزة والارتباط بها خاصة وأنها لم تقتنع بأسباب رجوعه إلى ديار الغربة.

تأثر ريشارد بقصة أسامة من كل جوانبها والخلفيات التى أثرت عليه وكانت نتيجتها شتاته روحيا وواقعيا. كل هذا زاد من إصراره بعدم ترك أسامة والوقوف بجانبه حتى يصل إلى مبتغاه. فقد كان دائما يروح عنه بأخذه لأماكن رائعة فى الدنمارك ويعرفه عليها خاصة وأنها مدينة رائعة ومن أهم المدن السياحية متجولين بين المنتزهات والمتاحف المتعددة التى تشتهر بها الدنمارك والكنائس والحدائق التى أبهرت أسامة وكان بذلك ريشارد نعم الصديق الذى عوض أسامة الكثير وكأن الزمن يعيد نفسه حين كانت الأيام شاهدة على صداقة سلمى وخلود هذه الأخيرة التى أزاحت ثقلا كبيرا عن صدر سلمى بسبب غربتها والظروف التى كانت تعيشها.

*****

مرت الأيام والرفيق الوحيد الذى لم يتوقع أسامة وجوده فى قائمة الأشخاص الذين كان يرسم الكثير من أجلهم، قائمة حصر فيها أسماء أعز الناس محاولا أن يعوض فراقه عنهم ويعوض كل سنوات الحرمان والغربة بأيام طالما تمناها.

لكن للقدر كلمته فقد دخلت أسماء أخرى غيرت كل الخطط المرسومة والموضوعة ومع كل هذه المفاجآت فلابد من توقع المزيد وهذا ما كان ينتظره أسامة لأن كل ما هو آت لم يدخله يوما ضمن حساباته وسينتظر ما لم يتوقعه.

بينما هو فى المكتب متحير لتأخر ريشارد عن موعده المعتاد فقد كان يزوره ويتردد إليه دائما، يذهبان للتجول أو لأحد المطاعم وفى أغلب الوقت إلى منزل أسامة، لكن اليوم تأخر "ريشارد" كثيرا عن موعده وليس من عادته حتى أنه لا يرد على هاتفه، لم يضخم أسامة الأمر فربما كان صديقه منشغلا كل هذا كان يجول فى خاطره وعاد أدراجه إلى المنزل بعد يوم حافل بالعمل والنشاط.

وكعادة أسامة كان يحضر أكلا خفيفا، يحاول أن يخفف جوعه دون أن يبذل أى جهد فى طبخه.

أكل غنى بكل الفيتامينات لا يحتاج عناء كبيرا فى تحضيره، دائما كانت هذه الكلمات التى يكررها أسامة على مسمع ريشارد كلما استضافه للعشاء معه، فكان هذا الأخير دائما يضحك ويمازحه بأنه لم ير كسولا مثله.

لكن اليوم سيبقى وحيدا يتناول عشاءه بمفرده يفكر ويفكر وطريقة إعداده للعشاء وعيناه التائهتان تدلان على ذلك فهو غارق فى بحر لا شاطئ له ولا مرسى. وهكذا بقى أسامة يسبح فى هذا البحر ويسبح بتفكيره ولم

يصل إلى بر الأمان وما هى إلا لحظات حتى سمع الباب يدق بقوة فلم يفهم وأصبح يصيح من دون وعي.

- لحظة، ما الذى حدث وبدأت علامات الغضب والقلق تظهر على وجهه، فتح الباب فوجده ريشارد.
- آه يا صديقى هل جننت ما بك لماذا تطرق الباب هكذا، وأين اختفيت؟!
- أكيد لا تعرف ما بي، بسرعة أدخل، عندى لك أخبار رائعة.
- ففتح أسامة عينيه وكأنه استيقظ من نوم عميق وأجابه: أخبار رائعة. وركض وراءه. وكأن ريشارد سحبه بعد أن نومه مغناطيسيا.
- لا أصدق يا أسامة، منذ فترة وبعد أن أخبرتنى بحكايتك وعدتك أن أبحث عن الرجل الذى آوى والدتك. ولهذا أخبرت صديقا لى يعمل فى البوليس أن يقوم بالتحريات عن اسم هذا الشخص وعنوانه فأخبرنى أنه توفى بعد أن غير سكنه وترك عائلته زوجته وابنتيه وهن مسافرات حاليا وعند عودتهن سيخبرنى وبعد مدة لم يردنى أى خبر منه. وقبل يومين اتصل بى وأخبرنى بأن عائلة هذا الرجل رجعت من ماليزيا، وفورا أخذت العنوان وذهبت وبقيت هناك ثلاث ساعات أراقب المنزل فلمحت امرأة رفقة ابنتيها تدخل المنزل وها أنا عائد من هناك، ما رأيك بهذا الخبر يا سيد أسامة؟.

كانت فرحة أسامة بسماعه لهذا الخبر لا توصف وملامح وجهه تحكى ذلك وكان جوابه الوحيد هو معانقة ريشارد بقوة دون أن يتركه.

فى الصباح الباكر ومع بزوغ أول شعاع للشمس فى سماء الدنمارك، قام أسامة الذى لم ينم أصلا ينتظر بفارغ الصبر متى يقابل هذه العائلة ويعرف أى شيء عن والدته عسى أن يستيقظ من هذا الكابوس، فأيقظ

ريشارد الذى كان نائما عنده.

- أسامة: ريشارد الفطور جاهز بسرعة، وهو يصرخ بأعلى صوته ثم شرد وقد تذكر أيامه مع نرجس ونورا ووالده حيث كان كل صباح يوقظ الجميع على صراخه فابتسم وقال بينه وبين نفسه هل ستعود هذه الأيام حقا؟
- ريشارد: آه... ما الذى يجرى ما بك هل جننت؟
- أسامة: بسرعة إلى الفطور، ثم بعدها إلى بيت هذه العائلة فورا هيا، وأخذ يجرّه إلى المطبخ والثانى يتذمر ويتمتم بين شفتيه.

*****

- اتجه الاثنان إلى مدينة ألبورغ شمال الدنمارك وكلّهما أمل فى العثور على خيط ولو كان رفيعا يوصلهما إلى أثر سلمى. كان الحى جميلا مميزا كل البيوت متقابلة وبينهم طريق واسع وتكسو أسقفهم قراميد حمراء، فكانت الألوان المختلطة رائعة.

توقف ريشارد بسيارته أمام أحد المنازل وتوجه مباشرة إليه وبقى أسامة فى السيارة ينظر ويتأمل وهو خائف وعلامات الارتباك واضحة على ملامحه وكأنه ينتظر نتيجة امتحان أو شيء مماثل، وبقى يلاحظ ريشارد يحاور ويتحاور مع السيدة فى أخذ ورد وكأنها ترفض مساعدته، وما هى إلا لحظات حتى سمع ريشارد يناديه ويلوح له بيده بأن يلحقه.

بدأت السيدة تحكى للشابين قصة سلمى. بعد أن دعتهما إلى منزلها وقد وافقت على سرد الحكاية أو إفشاء السر إكراما لوالد ريشارد لأنه صديق زوجها الراحل، مشفقة لحال أسامة الذى كانت توحى ملامحه باليأس والحزن وفى نفس الوقت كان متلهفا ينتظر حل هذا اللغز الذى

يعتبره مصير حياته التى ضاعت فى الأسفار والهرب من واقع صنعه والده أو بالأحرى رسمته الحرب وهو الآن يدفع الثمن لوحده.

- عندما جاءت سلمى أول مرة إلى الدنمارك كانت خجولة وملامح الذل والقهر واضحة على وجهها. عاشت معنا شهر واحد لأنها طلبت منا أن نبحث لها عن شغل ومنزل للكراء، وفى الفترة التى عاشت هنا لمسنا فيها الكرامة والكبرياء وكانت دائما تحاول أن تكون ضيفة خفيفة الظل، وعند رحيلها بقيت العلاقة بيننا حوالى الشهر والنصف بعدها رحلت من هناك وتركت رسالة تودعنا فيها دون سابق إنذار ولم نفهم السبب.

حاولنا البحث عنها لفترة ثم يأسنا حتى أن خلود عندما كانت تتصل بي، أخبرتها بأن سلمى رحلت ولم نعثر عليها، بالإضافة إلى أن زوجى كان كثير الأسفار بسبب عمله وقليلا ما كنا نتردد إلى المنزل وهذا من أهم الأسباب التى دفعت سلمى بأن تطلب الرحيل والاستقرار إلا أنها وجدته كعذر فقط لأننى عرفت جيدا طباع سلمى وعزة نفسها.

والشيء الوحيد الذى يمكن أن أفيدكم به هو عنوانها فى الحى الذى رحلت إليه. فلم تبتعد كثيرا عن المنزل الذى كنا نقيم فيه لأنها كانت تسكن فى فانلوسى حيث تركناها وجئنا نحن إلى ألبوغ.

- أسامة: وأين تقع فانلوسي؟

كان النهار فى آخره والليل فى أوله بعد أن قرر أسامة الذهاب إلى ذلك المنزل مباشرة عند سماعه لحكاية والدته علّه يجد مفاجأة أخرى بانتظاره، وبعد بحث وتقصى وجدوا المنزل أخيرا، دق أسامة الباب وهو خائف لكن لا أحد يجيب حتى أن المنزل مظلم فعاد الاثنان أدراجهما وأسامة حزين

صامت. أما ريشارد فكان يحاول أن يخفف عنه ويقنعه بأن يبتسم ويفرح لأن الخطوة التى اجتازها ستوصله إلى النتيجة التى يريدها لكن فقط بالصبر. ليعود الاثنان إلى المنزل بعد يوم يمكن أن نقول أنه أول خيط لأمل حقيقي.

*****

- لابد للعودة من جديد إلى ذلك الحى لكن هذه المرة نهارا عسى أن نجد ما نبحث عنه كل هذا... كان يدور بداخل ريشارد وأسامة.

كان الحى جميلا هادئا ترى أشخاصا بين الذاهب والقادم والجميع منشغلون وأطفال صغار يلعبون أمام بيوتهم. علّهما يجدا أحدا هذه المرة يجيبهما على كل سؤال يريد أسامة طرحه، وأعاد طرق الباب عدة مرات لكن لا أحد يفتح وبقى الاثنان فترة وهما على نفس الحال يدق الأول الباب وبعد دقيقة يعيد الثانى نفس الشيء لكن دون فائدة، وبدأت علامات القلق والتوتر تظهر على وجه أسامة.

وبينما هما كذلك حتى جاء عامل يظهر من لباسه أنه منظف الحي، سلّم على الاثنين وأراد أن يعرف سبب تواجدهما هنا، فقد لاحظ وقوفهما منذ وقت طويل، وعرف بعدها كل منهما بأنه منظف الحي.

- أجابه ريشارد بأنه يبحث عن امرأة كانت تسكن هنا منذ سنوات تدعى سلمى ووصفها له لكن العامل أكد لهما أن هذه المنازل مخصصة للكراء وأنه يعمل هنا منذ اثنتا عشرة سنة لم يلاحظ أبدا أن هذا المنزل كان يسكنه أو يتردد إليه شخص بهذه المواصفات خاصة وأن صاحب المنزل كان يأتى بين فترة وأخرى ليتفقد المنزل ثم يرحل. لأن هذا الأخير لا يسكن فيه وإنما خصَصه للإيجار فقط.
- ريشارد: أرجوك يا سيدى هل تستطيع أن تفيدنا بعنوان المؤجر؟

- لا أعرف عنوانه، لكن أعرف اسمه.
- بعد أن شكراه اتصل ريشارد بصديقه وحاول أن يعرف عنوان صاحب المنزل وبالفعل تمكن من الحصول عليه وتوجها فورا إلى العنوان المقصود فلم يجدا صاحب المنزل واتجها بعدها إلى عمله بعد أن تحصلا على العنوان من زوجته، وعند وصولهما إلى الشخص المراد عرّفه أسامة بنفسه ومن جديد أخبره بقصته كاملة.
- المؤجر: آسف، لا أستطيع أن أفيدكما بأى شيء فأنا اشتريت هذا المنزل على رجل هرم فى السن باعه لى كان بدوره يؤجر هذا المنزل، وحسب رأيى إذا سمحتما لى بأنه من الصعب أو المستحيل إيجاد والدتك، حاول أن تبحث عليها فى السجلات.
- ريشارد: حاولنا لكن لم نجدها أبدا بهذا الاسم.
-المؤجر: ربما رحلت من الدنمارك إلى بلد آخر.
- أمسك ريشارد أسامة من مرفقه وجره قائلا: شكرا جزيلا سيدى ونتأسف لأننا أخذنا من وقتك.

-رجعنا أدراجنا مرة أخرى لكن هذه المرة أُغلق باب الأمل مرة واحدة، فعوض التقدم بخطوة نحو الحقيقة فنحن نبحث كل مرة عن شخص جديد وأظن أن السلسلة لن تنتهي، لقد سئمت وندمت لأننى فكرت فى المجيء إلى هنا خسرت أحبابى وأهلى وكل من كان ينتظرنى بشوق قتلت الاشتياق والحب بوهم عشت فيه وعيشتهم غصبا عنهم لكن تأكدت اليوم بأننى أنا الخاسر، لكننى ربحت شيئا واحدا فقط صديقا رائعا مثلك هذا فقط الذى جعلنى غير نادم أبدا على اجتيازى مثل هذه التجربة، شكرا ريشارد لكن على العودة إلى الديار فلا أمل أبدا.

وهكذا قرر أسامة الرحيل، وكل محاولات ريشارد باءت بالفشل فى إقناعه بالبقاء للبحث عن والدته وعليه بالصبر فقط، وبقى أسامة فى حزن شديد يعمل صباحا وبعد الظهر يذهب بسيارته إلى الحارة التى كانت تسكن فيها والدته حسب قول السيدة التى أعطتهم العنوان، يجلس ويترقب ذلك المنزل من الخارج وبقى على نفس الحالة مدة أسبوعين، حتى لقاءاته مع ريشارد قلّت فقد أصبح إنسان منعزلا قليل الكلام، عابسا لا يعرف ماذا يفعل وإلى أين ستأخذه الأيام بمفاجأتها.

- وفى أحد الأيام وكعادته أسامة وهو جالس مقابل المنزل يترقب ويشاهد الأطفال يلعبون بدراجاتهم أمام منازلهم، إذ برجل عجوز هرم يقترب منه متحدثا إليه بأدب وابتسامة.
- صباح الخير.
- رفع أسامة رأسه، ونظر إليه ثم غيّر نظرته إلى الجانب الآخر ورد عليه غير مبال: صباح الخير.
- لا أعرف أظن أنه تطفُل منى لكن منذ عدة أيام وأنا ألاحظ أنك تتردد إلى هنا كثيرا، تجلس فى نفس المكان تراقب وتنظر إلى هذا الحى لم تقابل أحدا ولا تتكلم مع أحد ثم ترحل وهكذا أنت على هذا الحال كل يوم، هل ضاع منك شيء أم تنتظر شخصا ما؟
- رد أسامة: هل أزعجك يا سيدى بجلوسى هنا كل يوم؟.
- لا، العفو.. لكن أحسك حزين ومهموم، هل أستطيع المساعدة ؟.
- لا أظن ذلك، شكرا جزيلا (بابتسامة ممزوجة باليأس).
- لا أعرف يا عزيزي، ربما لو تحدثت أو فضفضت قد تجد الحل (ثم غير الموضوع وفاجأ أسامة قائلا): -ربما أستطيع مساعدتك من

يدرى فى الحقيقة أنا أيضا أتردد إلى هنا تقريبا كل يوم منذ سنة لأن هذا المكان عزيز على جدا وأظنك مثلي، لو سمحت لى سأحكى لك حكايتى ما رأيك (وكان كثير الكلام سريعا فى انتقاء كلماته وألفاظه لا يترك فرصة لمن يسمعه فى المحاورة أو الرد).

- تزوجت وعمرى ثلاثون سنة، بعد أن وعدت نفسى ألا أخطو مثل هذه الخطوة فى حياتى بسبب مسؤوليات الزواج ناهيك عن تقييد حريتي، لكن تجُر الأيام بعضها وتشاء الأقدار والصدف بأن ألتقى بـ "سوزان" لأخلف وعدى وتعرفنا وبعدها تواعدنا ولم أقاوم حبها، فقد كانت أطيب من التقيت على سطح الأرض وتزوجنا بعدها وأنجبت منها ثلاث أطفال وعشت فى هذه الحارة تقريبا العشر سنوات، بعدها تطورت أعمالى ورحلت من هنا لأعاود الرجوع بعد مرور سنوات والحنين يناديني، رجعت إلى هذه الحارة بعد أن كبر أولادى واستقر كل واحد فى حياته وبقيت أنا وزوجتى وحدنا نعيد ذكريات الماضى سويا. وبعد عامين عاد القدر بمفاجأة أخرى لم أتوقعها وهى وفاة زوجتى لم أتحمل فراقها والعيش مع كل هذه الذكريات لوحدى وعدت مرة أخرى إلى منزلى وأصبحت أتردد كل يوم إلى هنا لأتذكر أروع سنواتى التى عشتها مع سوزان. قبيل ولادة صغارى وفترة طفولتهم.

- أسامة: أظن أنكمّ تملكون نفس العادة الرحيل من مكان لآخر وهذا الشيء الوحيد الذى تعلمه والدى منكم القفز من منزل لآخر (بصوت خافت).

- العجوز: عفوا ماذا قلت ؟!

- أسامة: لا، لا شيء.

- العجوز: وأنت ما حكايتك. لماذا أراك حزينا شاحب اللون؟! وأنت على هذه الحالة منذ أيام عديدة.
- أسامة: بقيت أنت ولماذا لا أقص عليك حكايتى ستنشر عن قريب كرواية لكن النتيجة عدم. حكايتى يا سيدى بدأت... واسترسل أسامة فى الكلام والرجل ينصت إليه بإمعان.

*****

- هذه قصتى يا سيدى وأنا أحكيها للمرة الثالثة أو الرابعة منذ وصلت إلى هنا لكن كل يوم الأمل يبتعد عوض أن يقترب ونهارى كل يوم تغيب شمسه ولا أنتظر أبدا شروقها آه...، والرجل ينظر إلى الجهة الأخرى وكأن أسامة يحكى مع نفسه وقد لاحظ شروده وكأنه فى عالم آخر، ثم قال بصوت غير مسموع وهو يبتسم ساخرا من نفسه وللحالة التى آل إليها:
- ما الفائدة أظن أننى ختمت روايتى بالحديث مع رجل عجوز تائه فى ذكرى زوجته، هو على الأقل يعيش على ذكراها ليس مثلى يحاول البحث عن ذكرى وماضى فقط ليرسم صور فى مخيلته.
- ثم خاطب أسامة الرجل قائلا: عفوا يا سيدى أظن أننى أرهقتك بحكايتى التى لم تسمعها أصلا. (قالها بصوت خافت)، أتركك الآن سأعود للمنزل وشكرا على وقتك لقد استمتعت معك كثيرا ثم نهض وهمّ بالرحيل. إذ بالرجل يمسك كتفه بقبضته وقد كانت قوية وفاجأه قائلا:
- هل يمكن أن تصف لى والدتك كيف كانت؟
- أسامة: لماذا وما الفائدة؟!

- العجوز: أرجوك فقط صفها لي، لن تخسر شيء.
- أسامة: لا أعرف لكن أنا أملك صورتها تفضل ولكنها قديمة وغير واضحة هذا ما لدى هنا كانت أمى مع صديقتها قبل أن تتزوج (كانت تلك الصورة التى قدمتها خلود لأسامة عندما كانت الفتاتان فى لبنان باعتبار أن صالح مزّق جميع صورها فى لحظة غضب عندما رحلت ولم يجدها).
- العجوز: يمكن أن تكون هي، أجل هى رغم أن ملامحها تغيرت لكننى أتذكرها جيدا.

ثم التفت العجوز إلى أسامة وبدأ الكلام وعيناه جامدتان ملتصقتان بالمنازل وعادت به الذكريات إلى سنوات خلت

- كنت شابا حينها وسعيدا جدا بزواجى أتردد إلى هنا كل يوم بعد أن اشتريت هذا المنزل وبدأت من الصفر فى ترتيبه وتعميره بالأثاث وكان يسكن بجوارنا أناس كثيرون، لكن أتذكر أن هناك سيدة سكنت فى الجهة المقابلة لمدة معينة وما لفت انتباهى أنا وزوجتى أنها كانت دائما صامتة خجولة ومنعزلة كنت أعرف جميع سكان الحى ما عدا تلك السيدة، وإذا التقيت بها أنا وسوزان الكلمة الوحيدة التى تجيب بها بعد أن نلقى نحن التحية هى الرد بمثلها تطأطئ رأسها وتسرع فى المشى فلا تترك أى مجال حتى لمحاورتها أو التعرف عليها، بقيت هكذا لمدة قصيرة أظن حوالى الشهرين ثم اختفت من الحى نهائيا.

بعدها وبحوالى سنة أو أكثر أوكلت إلى مهمة من طرف الشركة التى أعمل بها إلى مدينة تقع غرب البلاد سافرت حينها بالسيارة واضطررت للتوقف أمام متجر صغير لبيع المأكولات. وعند دخولى صادفت تلك المرأة خارجة منه لم أتعرف عليها فى الوهلة الأولى لكن بعد أن تمعنت جيدا

عرفتها، أتذكر أنها كانت تحاور صاحب المتجر وهو يوضب لها الأكل لتأخذه معها، أظن أنها كانت تعرفه جيدا وعند خروجها اصطدمت بى رفعت عينيها نحوى للتأسف وما إن رأتنى عرفتنى فورا فزعت وارتبكت فأسرعت وهدّأت من روعها بكلمتين حتى تطمئن قائلا لها:

- كيف حالك سيدتى ؟

-أجابتني: بخير سيدي، وزوجتك كيف حالها؟

- شكرا بخير، كنت مارا من هنا بالصدفة توقفت لأننى فى مهمة رسمية تفاجأت برؤيتك، وسررت بذلك.

-أجابتني: شكرا جزيلا.

فقلت لها: لماذا رحلت من حيّنا؟، أظن أنك انتقلت إلى هنا واستقريت.

أجابت: فقط الظروف هذا كل ما فى الأمر، شكرا سيدى على سؤالك وسلامى لزوجتك.

- بعدها ذهبت وأنا أراقبها حتى غابت عن ناظري، ولا أعرف لماذا كنت فضوليا رغم أنه ليس من عادتى فذهبت واشتريت ما لزمنى ثم حاولت أن أستدرج صاحب المحل الذى كانت تتكلم معه وأوهمته بأننى أعرفها وأنها امرأة رائعة، عملت معى فى الماضى والآن رحلت وأخذت أمدح فيها.

فأجابنى صاحب المحل وهو يوافقنى الرأي: أجل سيدى إنها امرأة رائعة لم نسمع عنها إلا الخير لكن حظها قليل فى هذه الدنيا.

- فاستغربت وخاطبته على أساس أننى أعرفها: أجل، أجل حظها قليل رغم أنها تسكن قريبا من هنا ومع أناس مثلكم إلا أنها لم تجد فرصتها وحظها بعد.

- صاحب المحل: أجل يا سيدى ومع ذلك فهى سعيدة وراضية.
- أشكرك يا صديقى ويوما سعيدا.
- منذ ذلك الوقت وتلك المرأة فى مخيلتى كانت غريبة الأطوار واليوم فهمت سبب حزنها الدائم، الحياة كانت قاسية معها، بعدما أخبرت زوجتى اتفقنا أن نعود فى يوم من الأيام علّنا نجدها لنستفسر عن حالها لكن منذ ذلك اليوم وكأن الأرض ابتلعتها، حتى جئت أنت بعد كل هذه السنوات وذكرتنى بها وأنا متأكد بأنها هى حسب التواريخ التى ذكرتها ولا أعرف لماذا أحسست بأنك تخبرنى عن تلك السيدة بالذات عندما قصصت على حكايتها، فالقدر وضعك هنا لأدلك أنا ومن غير قصد.
- أرجوك سيدى إن حياتى متوقفة ومرتبطة بخيط رفيع يتقطع هذا الحبل وأحاول ربطه من جديد حتى أصل إلى الحقيقة علنى أجد أمي.
- لا تخف يا عزيزي، ستجدها عن قريب أو على الأقل تجد من يوصلك إليها.
- هل تذكرتها جيدا يا سيدي؟ وهل مازالت فعلا صورة هذه السيدة بمخيلتك؟ يمكن أن تعرف إذا ما كانت هى أم لا أرجوك تمعن فى الصورة جيدا على الرغم من أنها قديمة لكن حاول فقط فقد تعبت من التفكير وبناء أحلام وبعدها تتهدم فى لحظة.
- ما بك هل تظننى عجوزا بسبب هذا الشعر الأبيض لم يؤثر على عقلى بعد أتذكرها كما أتذكر صورة زوجتي. فقط فى هذه الصورة كانت أصغر بكثير وعلامات السعادة واضحة على ملامحها.
- لا، العفو لم أقصد لكننى تعبت كثيرا ولم أعد أحتمل وكنت أنوى

الرحيل حتى ظهرت أنت وفاجأتني.

- أقسم لك أنها هى وماذا أستفيد من كذبى عليك.

- لم يصدق ريشارد ما سمعه، بعد أن قص عليه أسامة ما حصل له.

وبعد هذه الحكاية التى لم يتوقعها الشابان والتى كانت أكبر مفاجأة لهما قرر الاثنان البحث فى المكان الذى وجدها فيه ذلك العجوز وتكون الانطلاقة من ذلك المكان علَهما يجدا أى أثر أو بصمة توجههما للعثور عليها.

هكذا وبعد أن التقى مرة أخرى بذلك العجوز نصحه هذا الأخير بالبحث من تلك النقطة، وشرح له مكان الحى واسم المتجر إذا لم يتغير بعد كل هذه السنوات. وتمنى لأسامة التوفيق بعد أن ودّعهما على أمل اللقاء به وفى جعبته ما يأمل من أخبار سارة.

*****

كل هذا وأهل أسامة يترقبون كل يوم أخباره، فأحمد فى اتصال دائم معه إضافة إلى الشركة التى زادت من متاعبها ومسؤولياتها عليه.

أما نرجس فقد زاد قلقها وحيرتها هل أسامة يعيش حقيقة أم سراب وفراقه عن عزة وعنادها وقد قررت إنهاء فكرة الارتباط به على الرغم من محاولات عائلتها لدرجة أن أحمد تشاجر معها وخاصمها وحذّرها بأن تغيّر رأيها وإلا ستندم وهو يعرف جيدا مدى حبهما لبعضهما وقد عاش هذه العلاقة الرائعة منذ بدايتها أو ولادتها فلم يتدخل يوما عندما كان أسامة يتحكم فى عزة ويحبسها أحيانا فى الغرفة أو يتشاجر معها وحتى عندما كان يراقبها لأنه كان يدرك جيدا أن كل هذا كان نابعا من غيرته وخوفه عليها وهو ناتج عن حب حقيقى وذكّر عزة بكل ذلك إلا أن جوابها كانت

دموعا غزيرة، دموع فراق بعد طول انتظار ودموع عناد وكبرياء أنهت به كل شيء فى لحظة.

وهكذا أصبحت أيام عزة كلها مضغوطة وقد خلقت لنفسها أعمال ومواعيد لا تنتهى بعد أن قررت مساعدة شقيقها فى إدارة الشركة. وفى أيام العطل كانت تذهب لنوادى فأصبحت كثيرة الحركة والنشاط وبالمقابل قليلة الكلام وإذا تحدثت لا تخرج بمناقشاتها عن نطاق العمل والاجتماعات والمشاريع، ماعدا ذلك فالصمت رفيقها تصطحبه إلى غرفتها ولا تراها حتى اليوم الموالى وبدأت الرحلة من جديد لنعود أدراجنا إلى نقطة الصفر.

*****

- أسامة: لا أصدق يا ريشارد أن أمى عاشت فى هذه البلاد دخلت هذه البيوت وانتقلت بين كل هذه المدن. كانت حياة والدتى مستقرة لكن الحرب غيرت كل شيء كان والدى وطنيا ولم يطبق هذا الوفاء إلا على والدتى فدفعت هى الثمن أولا وبعدها أنا وهو لم يدفع أى ثمن سوى الندم، عاش حياته وهو يتظاهر بالسعادة وضميره مرتاح لأنه لم يقترف أى ذنب لكن أكبر ذنب كان يعيش فى داخله أنه لم يحافظ على الأمانة التى تركها له جدى لأنه وبعد موته عادت جدتى إلى وطنها أما خالى فلم يظهر له أثر منذ أن هاجر ولم يبق لأمى عزاء فى الدنيا سوى أنا ووالدى لكن أبى وفى بوعده على أكمل وجه وكانت نتيجته عذاب أمى وتشردها. والآن دورى أنا لأسلك نفس الطريق طريق العذاب واليأس كل هذا ولا أعرف ما الذى ينتظرنى هل ستتواصل أحزانى أو تمحيها الأيام القادمة. كان يحكى وريشارد يقود منصتا له وهما فى طريقهما نحو مدينة أودنسه.

لم يصدق أحمد ما يسمعه فبالرغم من خصامه مع عزة بسبب عنادها وقطع علاقتها مع أسامة ورفضها الكلام معه أو حتى الرد عليه وهى تعرف جيدا سبب ذهابه للدنمارك. اليوم تفاجئهم بأن هناك من تقدم لخطبتها وهى لا تمانع الفكرة.

- أحمد: لا أصدق عزة ماذا دهاك؟! بهذه البساطة تقبلين الزواج وبأول شخص يتقدم لك. أفهم من هذا أنه تحدى لأسامة وانتحار لك أو بالأحرى أنت تتحدين نفسك.
- عزة: أتحدى أسامة...، انتحار. لو قال لى هذه الكلمات شخص آخر لما استغربت لكن أنت أخى عشت معى ومع أسامة وكنتما أنت وأمى أكبر شاهدين على حبنا رفضت كل شخص تقدم لى وكانوا من خيرة الشباب كل هذا من أجل أسامة ثم انتظرت وتحمّلت سنين الفراق على أمل أن تنتهى وتصبح ذكرى. وبعدها يرجع السيد أسامة ليفاجئنى بقصة أخرى ويبدأ من الصفر، شخص لا يريد حتى التضحية من أجلى لكن يضحى بى من أجل سراب. يريد أن يعيش وهما أو سمّه كما شئت. آسفة أخى طفح الكيل. وتعبت، أرجو أن ألقى منك الدعم أو على الأقل أن تقف بجانبى فى مناسبة كهذه لأنك كل ما أملك.

كل هذه الأحداث وما يجرى فى بيت نرجس. وأسامة يعيش عالما لوحده يحاول أن يلحق بحقيقة واحدة، حقيقة والدته بعد أن رحلت وهربت إلى الدنمارك.

وصل الشابان أخيرا إلى المنطقة التى وصفها لهما العجوز. وبعد السؤال والتقصى وجدا محلا كبيرا راقيا يعمل فيه حوالى عشرون شخصا، أكيد فبعد كل هذه السنوات لم يبق المحل كما كان عليه سابقا. دخل أسامة

وعلامات اليأس بادية على وجهه لم يستطع حتى الكلام، سلّم على صاحب المحل وبقى ينظر إليه والثانى مستغرب ينتظر أن يتكلما فهيأتهما وطريقة دخولها للمحل تدل على أنهما غريبان.

فى خضم كل هذا تدخل ريشارد وبدأ يشرح لصاحب المحل ويحكى له القصة باختصار ليحاول معرفة ما إذا كان يعرف سلمى أم لا.

أنصت صاحب المحل وكان يقف أمام صندوق الدفع وهو يتمعن باهتمام لما يقوله ريشارد واتجه بعدها الثلاثة إلى المقهى بعد أن طلب منه هذا الأخير أن يأخذ القليل من وقته لكن بعيدا عن المحل.

وبعد أن أنهى أسامة قصته التى أصبح يكررها فى أى مكان ومع أى شخص يحس بأنه سيدله على الطريق ليجد أمه، نظر الاثنان إلى صاحب المحل وبعدها سكت لبرهة وهو شارد ثم خاطبهما قائلا:

- لا أعرف يا سيدى لكن هذا المحل ملك لعائلتى ورثته عن والدي، وبسببه لم أكمل تعليمى الجامعى وقررت مساعدة أبي، فمنذ كنت صغيرا وأنا أذهب للمحل وأجلس هناك بالساعات أستمتع برؤية أبى يعمل وهو يوجّه العمال ويحضر المأكولات السريعة.

فعلا كان لأبى معارف كثيرة فى الحى المقابل وحتى فى الحى الراقى الموجود على يسار المحل صحيح أنه يبعد مسافة معينة لكن أغلبية الزبائن من سكان الحى المجاور أو الآخر. فقد كسبنا سمعة جيدة بين السكان وكلهم يأتون هنا بسبب ضيق الوقت والأعمال الكثيرة سواء موظفون أو رجال الأعمال، خاصة أن والدى كان محبوبا لدى الجميع.

لكن هذه المرأة التى تكلمت عنها لا أذكرها ممكن رأيتها لكن لا أتذكر ملامحها. وأظن أن الحظ يحالفكم فمن بين جميع العمال الذين كانوا

يعملون لدينا هناك من غادر ومنهم من توفى، لكن يوجد شخص لا يزال يعمل عندنا كان صديقا لوالدى وبدأ العمل من يوم افتتحنا هذا المحل يمكن أن يفيدكم بشيء لأنه يعرف الجميع هنا ويتذكرهم فقد أفنى حياته فى هذا المحل خدمة لهؤلاء السكان.

وبقيت الحكاية تأخذ أسامة بين هذا وذاك والسلسلة تكبر من شخص لآخر وهل أسامة يمشى فى الاتجاه الصحيح ويقترب كل يوم من الحقيقة أم يعيش وهما ويتراجع كل يوم خطوة إلى الوراء لأنه يسلك الطريق الخطأ.

خرج صاحب المحل وترك أسامة وريشارد ينتظران فى المقهى ووعدهما بأنه سيعود مع صديق والده. وبعد حوالى النصف ساعة حضر وهو يرافق رجلا يكبره بسنوات، عجوز لكنه لا يزال بصحة جيدة شعره أبيض وعيناه جاحظتان كان متوسط القامة ممتلئ الجسم. دخل الاثنان وبقيا يتكلمان وعندما وصل قطع كلامهما وقال صاحب المحل للعجوز:

- أعرّفك على هذين الشابين، بعدها جلس الرجل وحاول ريشارد أن يسأله بعض الأسئلة ويذكّره بالسنوات التى كان يعمل فيها مع والد صاحب المحل وبالضبط حيث كانت سلمى تتردد إلى هناك، وفورا أخرج أسامة صورتها وقدمها للعجوز قائلا:
- أعرف يا سيدى أن الصورة لا تتطابق تماما مع السيدة التى كانت تتردد إلى المحل، هنا كانت شابة غير متزوجة ومع هذا يمكن أن تتعرف عليها.

نظر العجوز جيدا إلى سلمى وكانت برفقتها خلود فى تلك الصورة وأخذ يتمعن ويركز يحاول التذكر، والثلاثة صامتون ينظرون إليه لا يحرّكون ساكنا أما العجوز فكان يتمتم بين شفتيه كلمات غير مرتبة:

- لا أتذكر ربما أعرفها لكن...وجهها ليس غريبا أظنها كانت تتردد إلى المحل لكن منذ سنوات لم أرها.
- عمى أعرف أن ذاكرتك قوية وتعرف جميع سكان الحى أظنها كانت منهم أرجوك تذكر.
- لا أعرف لكن لا أتذكر آسف لست متأكدا كنت أعرف جميع أهل الحى لكن مرّت سنوات وذاكرتى أصبحت ضعيفة.

كانت آخر كلمة يقولها هذا العجوز. بعدها شكر ريشارد صاحب المحل وترك له رقم هاتفه فى حالة طرأ جديد. أما أسامة فقد كان داخل السيارة وقد سبق صديقه بعد أن ودّع الرجلين ينتظر محطما لا يستطيع حتى التعليق، رحل الاثنان وقد نفذ صبر أسامة لم يستطع التفوه بكلمة وكان ريشارد مثله فقد عاش معه كل هذه الأحداث لحظة بلحظة.

مرت الأيام وأسامة يعمل فى مكتبه. أما ريشارد فيتفقده من حين لآخر كعادته أحيانا إلى المكتب وأحيانا أخرى إلى المنزل وأسامة على نفس الحال حتى أنه لم يتصل بأحمد أو نرجس، يعيش فى عزلة وقد وجد فيها المتنفس الوحيد لمعضلته.

-أسامة: نار تحرق كل خلية من روحى يا ريشارد وليس من جسمى فحسب. أظن أننى أركض وراء سراب والأكثر من هذا أننى خسرت أعز الناس وتركتهم ورائي. لا أدرى ما العمل أظن أننى سأبقى هنا أعيش الغربة والعذاب ثمنا لما اقترفه والدى رحمه الله بأمي.

*****

لم يستوعب أحمد ما قالته عزة، وتخليها بهذه البساطة عن قريبها وقبولها للشاب الذى تقدم لها حيث نكثت بوعدها لأسامة وبأنها ستنتظره

مهما طالت غربته (هذا ما قاله أحمد لوالدته وهما جالسان يشربان القهوة).

- نرجس: لكن هذا الوعد الذى قطعته عزة على نفسها مع أسامة كما تقول عندما كان فى سويسرا وظروفه كانت معروفة لكن هذه المرة كل هذا لم يكن فى الحسبان وستبدأ عزة معه من الصفر وربما...
- قاطعها أحمد: ماذا يعنى ذلك يا أمي، أنك توافقينها الرأي؟!
- نرجس: لا، ليس هذا يا عزيزى لكننى حائرة فكلاهما يملك الحق فى تقرير مصيره وبالتالى كلاهما حر فى اتخاذ ما يراه مناسبا، أسامة قرّر البحث عن والدته بعد ظهور خلود وهذه الرسالة. وعزة ملت الانتظار ولم تتقبل فكرة سفره التى لم تقتنع بها لحد الآن والنتيجة أمامك.

-أحمد: احترت يا أمي، لكن لن أعارضها بعد الآن فى أى قرار تتخذه والمشكلة فى أسامة ففكرة عدم قبول عزة الرد على مكالماته ورفضها التحدث معه فقط أقلقته كثيرا ودائما يتصل بى لأحاول إقناعها بالتكلم معه. كيف واليوم أخبره بأنها ستتزوج هكذا دون سابق إنذار وبكل بساطة.

- نرجس: لا تقلق يا عزيزى ولا تقل له شيئا واترك كل شيء للقدر فكما غيّر حياتنا بين ليلة وضحاها يمكن أن يرجع المياه لمجاريها بين لحظة وأخرى.

*****

كعادته أسامة وككل يوم فهو فى المكتب منهمك يحاول أن يشغل نفسه قدر الإمكان حتى يهرب من واقعه بينما هو كذلك إذ به يسمع صوت ريشارد

يلهث بقوة واقفا فوق رأسه مخاطبا إياه مباشرة دون أن يلقى عليه السلام:

- ريشارد: أسامة اتصل بى صاحب المحل يريدنا أن نذهب إليه فورا لقد أخبرني....(وذهبا فورا وفى طريقهما أخد يروى له ما أخبره به صاحب المحل).
- العجوز: (بعدما التقى بأسامة رفقة ريشارد ومعهما صاحب المحل) أجل تذكرت والدتك كانت إنسانة كتومة منعزلة عندما جاءت إلى هنا كانت قليلة التردد على محلنا بعدها وبمرور الزمن ألفناها وألفتنا وعلى الرغم من مجيئها المتواصل إلى المحل إلا أنها كانت كتومة جدا على حياتها الشخصية ولا أحد يعرف ما إذا كانت تعيش وحيدة أو مع العائلة، خاصة وأننى لا أسكن هنا أجيء للعمل هنا وأعود بعدها مباشرة إلى منزلي.
- أسامة: وأنت ألم تكن تقيم فى هذا الحى يا سيدي؟ مخاطبا صاحب المحل.
- صاحب المحل: لا، والدى يملك منزلا بعيدا من هنا وكذلك كل من يعمل معه.
- العجوز: لهذا لم نكن نعرف شيئا عنها ولم نحاول ذلك فطريقة كلامها ملامحها والحزن الذى كان ظاهرا على وجهها كل هذا يؤكد أنها امرأة قوية، صبورة وتحمّلت الكثير. بقيت كذلك لمدة معينة بعدها اختفت عن الأنظار ولم نعد نراها ولم نجد حتى من نسأله لنستفسر عن حالتها، لا نعرف عنوانها ولا اسمها لأنها كانت دائما غريبة الأطوار وكأنها خائفة من شيء أو تهرب من واقع ما وكأنها تحمل عبئا ثقيلا هو الذى أجبرها على العيش بهذه الطريقة.

- ريشارد: منذ ذلك الوقت لم تتعرف على اسمها أو أى شيء عنها؟
- العجوز : لا يا صديقى للأسف كانت مثل الخيال غريبة الأطوار كما قلت لك، رحلت ولم تترك أى أثر مثل الشمعة التى تنير وبعدها تنطفئ وتذوب.

شكر ريشارد الرجلان وعاد أدراجه مرة أخرى مع أسامه وفى طريق العودة وهذه المرة لم يبق أسامة صامتا بل تكلم وأخرج كل ما بداخله بصوت حزين وقد أجهش بالبكاء:

- لماذا كل الناس يعيشون فى استقرار وأنا ضاعت كل حياتى فى حقد وكره؟ دفعت ثمنها سنين من عمرى فى الغربة بعيدا عن أهلي، أنا رسمت لهم تلك الصورة وعندما رجعت ورضيت بقدرى وبالعيش بينهم حتى ولو لم تكن الأم والتى سميتها أنا بأمى ولم يكن الأخ أخى وتخيلت أنه كذلك، بعدها مات والدى وظهر كابوس آخر ذكرى والدتى إذا كان أصلا لها ذكرى ومكان فى هذا العالم. لماذا ريشارد يحصل معى كل هذا وأنا أدفع ثمنه.
- توالت الأيام وكأنه يوم واحد يعيد نفسه وتتكرر كل دقيقة فيه على أسامة وهو من قرّر ذلك. فحسب رأيه لم يبق لحياته معنى وهو يركض وراء كذبة وهكذا أخبر ريشارد عن قراره وأنه عازم على الرحيل وأول ما سيفعله أن يترك المكتب له ليتابع أعماله خاصة وقد أصبح له رواج واسع والفضل يعود لـ ريشارد ويصبحان بذلك شريكين.
- ريشارد: أكيد لن أقبل بما تقوله وتعرضه على يا أسامة. صحيح أننى لن أجبرك على البقاء خاصة وأن أهلك بانتظارك وإقامتك هنا مؤقتة لكن فكرة أن تترك... (قاطعة أسامة).
- أرجوك ريشارد أنت لا تعرف السبب الذى دفعنى لذلك أعرف أنك

ستوافقنى الرأي. بقاء أعمال المكتب وعدم تصفيته وإشرافك عليه ضمان بأننا لن نفترق أبدا وستدوم صداقتنا خاصة وأن الدم العربى يجرى فى عروقك ولهذا لن تنقطع اتصالاتنا أبدا وهناك ما يجمعنا إضافة إلى كل هذا جميلك الذى لن أنساه (قاطعه ريشارد فورا).

- من فضلك أسامة أنا الذى من المفروض أن أشكرك وأشكر الصدفة أو القدر الذى جمعنا. خلال هذه الأشهر تعلمت الكثير منك ولاحظت أشياء وأشياء كنت صامتا أراقب لم أفهم حنانك وشوقك لعائلتك وهذا ما نفتقده نحن هنا، عطفك على المحتاجين صلاتك ودعاؤك ذهابك للمسجد وقراءتك للقرآن، فى أغلب الأحيان كنت أنصت إليك وأنت تقرأ وتدعو الله. وأنا هنا مسلم لكن بالفطرة فقط خاصة وأننى ترعرعت فى بيئة أوروبية وأمى كانت مسيحية وعلى الرغم من أن والدى مسلم إلا أننى لا أعرف تفاصيل دينى ولهذا أرجو أن تلقننى كل هذه التعاليم من صلاة وغير ذلك من الأمور الدينية التى تخص الإسلام.

لم يصدق ما سمعه أسامة وأيقن أن الله يضع صدفا وأهدافا أخرى ليتعلمها هو وكانت فرحته أكبر من كل آلامه حينها حضن ريشارد بقوة وترجمها بدموع حكت حزنه وفراقه وأنهاها بسعادة وهو يرى صديقه يتجه للطريق الصواب.

- الإسلام يا عزيزى بكل بساطة يضم كل ما قلته وأكثر من هذا بكثير.
- وأنا كيف...؟ ولم يستطع إتمام الكلام وكان فى حيرة من أمره.
- أنا أعرف كيف وسأريك ذلك (وبدأ أسامة فى تعليمه مبادئ الإسلام والمسلمين وعاداتهم وحياتهم). هذا هو بيت المسلمين بيتنا كلنا هنا

نصلى ونجتمع ونستطيع أن نعلن إسلامنا وتغّير حياتك وتعيش فى ظله وأنت عابد لرب العباد والأكوان الله لا إله إلا هو.

وهكذا تعرّف ريشارد على مبادئ الإسلام بعد أن أخبره أسامة الكثير عن تاريخ دينه والمسلمين ورسوله الكريم خير البشرية وزاد تعلّقه بالإسلام من خلال التعرف على كل هذه التفاصيل.

بعدها فاجأ ريشارد أسامة بأنه يريد تغيير اسمه باعتبار أن أمه من سمته وطلب من صديقه اقتراح اسم له وكم كانت فرحة أسامة كبيرة ولم يفكّر حينها وكأنه كان ينتظر هذا الأمر فاقترح عليه اسم صالح والده، ولم يرفض ريشارد هذا الاسم بل قبله بصدر رحب وكان جوابه أن حضنه بقوة وأسامة يبكى متأثرا بما حدث متذكرا لماض فيه الكثير من الأحداث التى لازالت لليوم تتبعه ولا يعرف نهايتها تاركا ذلك للقدر وحده من يجيبه.

وجاءت هذه الأيام لتحكى فرحة وليدخل الحزن فى سبات، فللقدر أحكامه ونسى أسامة ما فات عليه من أيام صعبة وهو منهمك مع صالح فى تعليمه أصول الإسلام من جهة وفى مسك زمام أمور المكتب بتلقينه أصول المحاسبة والتجارة من جهة أخرى وترك كل شيء للأيام جالبة ما أرادت من مفاجآت فقد تعوّد عليها ولم يعد يستغرب حصولها.

*****

حانت لحظة المصارحة وأخبرت عزة عائلتها بأن الشخص الذى كلمتهم عنه ينتظر موعدا ليزورهم رفقة عائلته، وتأكد حينها أحمد ونرجس أن الحكاية جدية ولا بد أن يتحضر أسامة لما هو آت ويضعه فى الصورة.

وكذلك بدأت الصورة تتضح عند أسامة وتتجلى. فقد نظّم أموره إلى المرحلة التى يعتمد فيها فعليا على صالح فى العمل أو حتى عندما يتكلم

أسامة فى الأمور الشخصية والتقاليد وكل التحفظات فقد أصبح صالح يفهمها بعد أن حاول الوصول إلى عمق الإسلام ومعناه الحقيقى بفضل أسامة.

لكن فالفرحة لا تدوم ولا بد للحزن أن يقوم من سباته، حتى أن فرحة أسامة لم تكن كاملة حاول فقط من خلال ريشارد أن ينسى بعض أحزانه.

كان اتصال أحمد هو الصاعقة التى هدّمت ما بقى له من أحلام وطموحات فقد أخبره بخطبة عزة وأنه من المقرر أن تقام حفلة صغيرة للإعلان عن الخطوبة رسميا ولم يستطع أحمد الكلام بشكل واضح فصوته يطغى عليه الخجل والحزن والأسف على كل سنوات الأخوة بينهما والحب الذى جمعه مع عزة. كان يتحدث معه وأسامة كالتمثال وكأنه فى عالم غير العالم لا يعى ما يدور من حوله، فقط يسمع بكاء وتمتمات نرجس وهى جالسة بجانب أحمد.

- لم يتبق مكان للمعانى الجميلة ولا حتى لدفن اليأس وخلق أمل جديد حتى ولو كان ذلك برسم ذكرى جميلة لم أعشها وأحيى من أجل أناس أحبهم وأجد فى أحضانهم عزائي.

ابتسم أسامة بعد هذه الكلمات التى خاطب بها صالح ابتسامة سبقتها دموع وحسرة، ابتسامة ذل وانكسار تمتزج هذه الضحكة مع الدموع فكيف ستكون ملامح الوجه...؟

جاء اليوم غير المنتظر، والذى لم يكن فى الحسبان خطبة عزة، يوم كان من المفترض أن يكون أسامة بطله بجانبها أين يعلن علاقتهما رسميا كم خططا لهذا اليوم ليأتى من ينفذ خطته ويخرج هو من القصة ويصبح مجرد متفرج على عزة وهى تُسرق منه بسبب القدر.

يومها بقى أسامة فى المنزل ولم يضغط عليه صالح للذهاب إلى المكتب بل تركه نائما وأى نوم بل كان يتظاهر بذلك ولم يرد الخروج من المنزل.

بقى اليوم كله وهو جالس أمام التلفاز يدخل ويخرج بين الغرف، أحيانا يغنى وأحيانا يضحك بصوت عال، وفى الأخير عبّر عن مشاعره بصدق فانقلب الضحك إلى بكاء، بكاء على ما فاته وحسرة على ما هو آت.

فى نفس اللحظة ودموع أسامة تنهمر كان قلب نرجس يعتصر وأحمد ينظر حائرا وقد قُيد إصبع عزة بخاتم شخص لم نكن ننتظره، ووضعت الخاتم فى يد رجل لم تتوقع حتى رؤيته خدعت المدعوين بدموع حزينة. حسبوها دموع الحزن بأول خطوة تبتعد فيها عن أهلها ودموع الفرح فى نفس الوقت لأنها تقترب من بيت زوجها، ولكن ما تخبئه روحها لا يفهمه إلا أحمد ونرجس.

*****

لا بد لشمس يوم جديد أن تشرق، ولابد للزمن أن يمضى ويفقد كل عزيز عزيزه. فمن غير الممكن أن يتوقف الوقت ويرجع للوراء لإصلاح ما يمكن إصلاحه.

- أسامة: قررت والنتيجة أنى فقدت أعز الناس، حاولت أن أقوى علاقتى بنرجس وأحمد بزواجى من عزة، ناهيك عن حبى لها لكن اليوم يجب أن أتخذ القرار الأخير وأظنه سيكون صائبا، لأننى لن أخسر أكثر مما خسرته.
- صالح: دائما أخاف من قراراتك وأنت غاضب.
- لا تخف يا صالح وفى نفس الوقت لا تستغرب. لا أعرف يمكن أن يكون القرار سريعا لكن فى ظل كل هذه المستجدات فهو الأحسن برأيي.

وبم أننى خسرت أهلى والآن أدفع ثمن أنانيتى وعدم اهتمامى برأى عزة ونصائح أحمد فلا بد لى من عقاب ثمنا لعنادى وهو أن أبقى هنا طيلة حياتي، وأنا فى المنفى نفيت نفسى وعزة عاقبت روحي. ليس هذا فحسب فقد قررت أن أعيش فى تلك الحارة القريبة من الدكان الذى كانت تتردد إليه والدتى لأسلك نفس خطواتها وعندما أجوع أذهب لنفس المحل الذى كانت تذهب إليه عندما أشتاق أزور البحر لأنها كانت تحبه، أحكى له حزنى وأنظر لصورها وأعيش على ذكراها، أعترف أنى فشلت ولم أتمكن حتى من معرفة ماضيها، أو العثور عليها أو على أراضيها فقط كيف عاشت وأين هى إن كانت حية، وإن توفيت أزور قبرها وأحكى معها لأشفى غليلى فقط (كان يتكلم وعلامات اليأس ظاهرة على وجهه وواضحة من خلال نبرة صوته وصالح ينظر إليه مشفقا على حاله).

*****

وهكذا رحل أسامة إلى مدينة أو دنسه مستأجرا بيتا هناك تاركا وراءه حلم العثور على والدته ولقاءه بها منعزلا يائسا لا يعرف من أين يبدأ سوى أنه سينهى حياته هنا كما فعلت والدته.

كان أول يوم لأسامة فى هذا الحى بعد أن بحث له صالح عن منزل لاستئجاره وبإصرار من أسامة ووجد أن الحل الأمثل هو العيش فى مكان بعيد وبمفرده، يعيش خيالا وأفكارا قد تكون متنفسه الوحيد وتعوضه عن أمنيات تمنى تحقيقها. معرفته لماضى أمه فأصبح يرسم ذلك الماضى وحده، رأيته لها فرسم لها صورة فى زوايا هذا الحى وجعل من نفسه كاتبا يكتب قصته ويضع لها النهاية لأن القدر أبى أن ينهيها كما تمناها هو.

فحوّلها إلى سراب وهو يعيشه الآن ويدفع ثمن الماضى الذى صنعته الحرب.

- غربة على غربة (أول ما قاله لصالح عندما رافقه لاستئجار المنزل وساعده على تجهيزه) أعرف أننى أدفع ثمن كل أفعالي. لكن لم تكن نيتى أبدا إيذاء أحد أو تجاهل من أحب. فقط أردت معرفة ماضى من خلال والدتي، من الصعب جدا أن تعيش يتيما ولا تعرف والديك والأصعب من هذا أنك لا تجد حتى من يُعرفك عليها لتحتفظ على الأقل بما يُحكى لك كذكرى فقط. ما أبشع هذا الإحساس يا صالح تحس بأنه ينبوع يفيض يخرج منه القهر والذل وحتى الظلم، دفعت ثمنه أمى ومن أقرب الناس وكان أبى أهلها وزوجها وكل شيء، وأنا أدفع اليوم الثمن ظلمت نفسى وظلمت أعز الناس معى فكانت النتيجة هذا الشتات. الله يسامح من كان السبب فى نشوب نار تلك الحرب التى أحرقت كل عائلتى وأصبحت أنا اليوم كالرماد، وتنهد تنهيدة طويلة وكأنه يحكى بها كل مآسيه.

وهكذا بدأ أسامة يتعود على الروتين الجديد، حيث حاول فتح مكتبه الصغير ينسق به العمل مع صالح إضافة إلى أنه لا يستطيع التنقل كل يوم للعمل لبعد المسافة بعض الشيء، واستحالة التنقل كل يوم وحاول شيئا فشيئا التأقلم مع طبيعة المكان والأشخاص الذين يتعامل معهم.

كان تقليده الدائم الذى تعود عليه بأن يقضى عطلة نهاية الأسبوع مع صالح يروح عن نفسه ويتناقشان فى التنسيق بين المكتبين ناهيك عن الأمور المستعجلة التى كانت تلزم صالح الذهاب إلى أسامة أو العكس.

وعلى الرغم من محاولة صالح إقناع أسامة العودة إلى المدينة التى يقطن بها إلا أنه كان يتجاهل كلامه فى كل مرة ويصر على البقاء حيث هو،

وكأن البعد قد فاده كثيرا وأنساه كل همومه وهذا ما كان لا يصدقه صالح.

*****

مرّ شهران على رحيل أسامة وفى هذه الفترة الوجيزة، كون صداقات كثيرة بسبب علاقاته وظروف العمل التى ألزمته خلق مثل هذه الصداقات أو بمعنى أدق هذه العلاقات.

بدأ صالح يلاحظ تغيّر أسامة المفاجئ، فقد أصبح قليل التردد إليه فى الشهر الأخير حتى أنه لا يزوره فى عطلة نهاية الأسبوع وأضحى غير جاد فى عمله كالسابق لا يهتم بمشاكل العمل أو العوائق التى تصادفهم ليحاول حلها مع صالح كما كان.

وبدأت الفجوة تزداد بينهما وصالح مستغرب الأمر وهو يحاول أن يفهم سبب كل هذا التغير إلا أن أسامة يتهرب فى كل مرة ولا يعطى أية فرصة لصالح للتقرب منه كما كانا فى الماضى ومعرفة ما الذى يجرى معه، حتى أنه فى أحيان كثيرة كان يحاول أن يزور أسامة رغم تراكم العمل عليه ويصل إلى منزله فى آخر النهار فلا يجده ودائما هاتفه مغلق ويرجع أدراجه ليصل إلى بيته آخر الليل.

وشيئا فشيئا ساءت الحالة بينهما ولم يفهم صالح ما غيّر أسامة وما الذى يدور فى ذهنه فقد كان فى الماضى كتابا مفتوحا، أما اليوم فأصبح سرا من الصعب فهمه وبقيت الأحوال على حالها بل ازدادت سوءا.

وعرف بعدها صالح من أصدقاء له أن أسامة لم يف أغلب الصفقات التى أبرمها مع العملاء كما أنه تغير فى معاملاته مع زبائنه ولولا الصداقة التى تجمعهم مع صالح لاتخذوا الإجراءات اللازمة لكن هذا الأخير حاول أن يقنعهم بالظروف الصعبة التى مر بها أسامة ووعدهم بأن تتم جميع صفقاتهم وذلك بأن ينقل جميع الملفات إلى مكتبه ويصفيها.

وكانت الفرصة أو بمعنى أدق السبب القوى الذى دفع صالح لمعرفة هذا التغيير الذى طرأ على أسامة فجأة فعزم الذهاب إلى بيت أسامة بسيارة أحد أصدقائه حتى لا يتعرف عليه وركن السيارة بعيدا وبقى يراقب أسامة. ومرت حوالى ساعة والبيت هادئ ولم يطرأ أى شيء غير عادى بعدها وبدقائق لاحظ أربع شبان يهرولون ويتمايلون فى الطريق بشكل غير لائق طرقوا الباب فخرج أسامة وانطلقوا فورا ولم يطيلوا حتى الانتظار كان من الواضح أنه على موعد معهم، ركبوا سيارته وذهبوا فانطلق وراءهم صالح وهو مستغرب وبقى وراءهم حتى وصلوا إلى ناد ليلى خارج المدينة يبعد عنها حوالى الساعة. دخلوا وطلبوا ويسكى أما أسامة فطلب عصيرا وبدؤوا بلعب الورق وأسامة يراقبهم وصالح يراقب الشباب وأمضى الجميع ليلتهم فى ذلك النادى إلى ساعة متأخرة من الليل.

بعد كل ما رآه صالح لم يصبر ولم يعرف ما العمل وأسامة فى طريقه للضياع طريق الفساد صنعه هو بيده أم القدر أجبره على إتباعه، كل هذا ليس مهما أمام ما سيحدث مستقبلا.

كان صالح فى المكتب وهو يحاور نفسه عله يصل إلى الحل فأسامة أعز صديق له بل أخوه الوحيد والذى بسببه اليوم هو من خيرة الشباب إضافة إلى أنه أمنه على ماله وأعطاه كل ما يملك فكيف اليوم وهو يخرج من الصلاح إلى أرذل الأعمال لو لم ألحقه بسرعة فمصيره الضياع.

*****

كيف حالك اليوم أو كيف حالك خلال الأيام التى مضت لم أرك منذ زمن (وكان صالح يحضّر القهوة وهو يتكلم مع أسامة بعد أن ذهب إلى بيته وفتح له الباب وهو بلباس النوم).

- آه يا صالح رأسى يؤلمنى سهرت ليلة البارحة ولم أستطع النوم.

- ماذا كنت تفعل؟!
- لا شيء مهم سوى العمل والعمل أنت تعرف يا شريكى (وضربه على كتفه ممازحا إياه وهو يبتسم).
- فى العمل؟! منذ متى أنت تسهر فى المكتب لساعة متأخرة صارحنى فقط أين كنت؟
- ماذا تقصد بسؤالك؟!
- تعرف شيئا يا أسامة، لست أنا من يتهرب دائما وليس العلاقة التى تجمعنا هى التى تُبنى على اللف والدوران والكذب. بصراحة هناك من رآك مع مجموعة من الشباب فى ناد ليلى للعب القمارّ
- ماذا...؟ صالح من فضلك الزم... (قالها وقد كان مرتبكا متفاجئا بمواجهة صالح له).
- قاطعه صالح: ماذا ألزم حدودي. مع كل الناس تنطبق هذه الكلمة لكن ليس معي. أعطى لنفسى كل الحق للتدخل فى شؤونك الخاصة ولأبعد الحدود.
- إذن من أخبرك بهذه المعلومة أوصل له رسالة بأنهم شباب ناجحون فى أعمالهم تعرفت عليهم من خلال صفقات أبرمتها معهم، صحيح أنهم يحبون الترفيه لكن فى إطار المزح فقط لنسيان هموم العمل.
- ولماذا لم تخبرنى بهذه الصداقات فأبسط الأمور كنت تخبرنى بها. ما الذى تغير الآن؟!
- آه صالح (خاطبه بقلق وعصبية) أنت تبالغ وتهول الموضوع، لم تسمح لى الفرصة فقط بأن أخبرك ولم أر داع لذلك لعدم أهمية الأمر إضافة إلى هذا فهو مجرد ناد نذهب إليه للترويح عن النفس.

- ناد للعب القمار وشرب الخمر؟!
- فتغير وجه أسامة: أظن أنهم أخبروك بأدق التفاصيل وأظن كذلك أنهم مأجورون لمراقبتى أنا بالذات. لعلمك يا صالح ليس أسامة من يلعب القمار ويشرب الخمر وأنت تعرف ذلك جيدا.
- وليس أسامة الذى يعاشر أناسا مثل هؤلاء وينزل لمثل هذا المستوى، فهدفه الأول منذ وضع قدماه هنا هو معرفة ماضيه ليفتخر به أمام أولاده وأهله وليس للانحطاط والدخول فى شبكات الانتهازيين وأصدقاء السوء أمثالهم.
- (رد أسامة بصوت مرتفع وهو غاضب): لست وصيا على حياتى أو وكيلا على ممتلكاتى ومالي. أعرف جيدا ما الذى أفعله وما الذى أبتعد عنه.
- (رد صالح بصوت يرتجف وعيناه ممتلئتان بالدموع وهو مصدوم): شكرا أسامة لم أكن وصيا عليك عندما جئت للبحث عن أمك وعن ماضيك. صحيح يجب أن ألزم حدودى فقد تجاوزتها كثيرا ولابد لتدخلك لتضع حدا لى متأسف وشكرا أسامة.

خرج من المطبخ متجها إلى الباب الرئيسى ولحقه أسامة مناديا عليه لكن بصوت خافت (صالح لم أقصد...) لكنه لم يلحقه، وعند رجوعه للمطبخ وجد القهوة انسكبت على الموقد وهى تغلى فوق نار هادئة تركها له صالح حتى يشرب منها علّه يفيق ويرجع لصوابه.

وتستمر الأيام لتحكى لنا حكايات تختلف وتتنوع وأحيانا لا تصدق حتى تربط الصدف ببعضها لتتحول إلى معجزات.

*****

توطدت العلاقة بين أسامة وأصدقائه لدرجة أن سهراتهم أصبحت تقام فى بيته فى مشاهدة المباريات وإقامة الحفلات والسهرات الشبابية وفى أغلب الأحيان لعب الورق.

وهكذا قرر أسامة أن تتحول حياته إلى لهو ولعب وتبدلت أحزانه وأوجاعه إلى مصاحبة أهل السوء وأعرف جيدا أنهم أصدقاء مصلحة ومظاهر وأتمنى فقط أن يعى أسامة ما يدور حوله (صالح يتكلم مع صديق له عندما سأله عن أسامة واستغرب اختفاءه كل هذه الفترة وهو صديق لأسامة كذلك).

- لكن يا صالح لا يجب أن تتركه فى هذه الظروف.
- لا أدرى لكن كرامتى وكبريائى جرحا ولم أستطع أن أفرض نفسى أكثر رغم أننى أتألم لحالته.

وأمست هذه السهرات تجرى فى دم أسامة لعب الورق ومشاهدة مباريات كرة القدم والانتقال من ملعب لآخر، مشاهدة التلفاز مع أحبابه كما يدعوهم فى منزله الذى عوض الملعب وأصبح ساحة للصراخ وإتباع الأندية الكروية حتى أصبحت هوسا بالنسبة له وأصبح يقضى الليل طوله فى اللعب أو اللهو خارجا والجولات والرحلات.

صباح أسامة يقضيه فى النوم والاستراحة من ليلة متعبة استهلك فيها كل جهده فى اللهو عوض العمل والكد، وخسر بذلك صداقة صالح الذى انقطعت علاقتهما وخسره للأبد ومع هذا لم يسمح له كبرياؤه حتى للاطمئنان عليه.

صالح ذلك الشخص الذى ترك كل شيء فقط ليحاول مسح دمعة أسامة وحتى قبل اعتناقه للإسلام أخلاقه لم تسمح له حتى بتركه والتخلى

عنه واليوم من يتخلى عن من؟

كل هذا وأسامة صامت يأخذه فكره لصالح والاشتياق إلى تلك الأيام وقد بدأ يمل من كل هذا، كان صامتا ينظر إلى المباراة وكل من معه يصرخون ويتجولون فى المنزل وكأنه هو الضيف ينظر إليهم بصمت وكأن وخزة قوية أو جعته وأفاق بها من نوم عميق.

بينما هم فى كل ذلك الصخب والضجيج وكأنهم ملكوا العالم إذ بباب المنزل يُطرق طرقا خفيفا لكن لا حياة لمن تنادى وبقى الطارق يزيد من قوة دقاته حتى أصبحت وكأنها دفع قوى يريد به صاحبه كسر الباب.

وهنا سمع أسامة الطرق فذهب مسرعا مفزوعا وأول ما فتحه وجد فتاتين أمامه طويلتان قليلا نحيفتان واحدة بيضاء تميل بشرتها للاحمرار والثانية سمراء وعيناها كبيرتان يكاد البؤبؤ بسواده يغطى بياض العين. وكل واحدة منهما لها جمالها وحلاوتها الخاصة ومظهرهما يوحى بأنهما من أهل الحى ومن عائلة مرموقة.

- أظن أنك تعيش وسط أناس محترمين كل واحد له أشغاله الخاصة (مخاطبة إياه الفتاة الأولى)، وأظن كذلك أنك تعرف معنى كلمة وقت متأخر وتعرف معنى كلمة الليل أين يلجأ الناس فيه للراحة والنوم.
- هناك المريض والرضيع والعجوز والعامل طوال النهار ومن كان يدرس... (الفتاة الثانية متحدثة إلى أسامة) كل هذا وأسامة ينظر إليهما منبهرا متعجبا وأصحابه من ورائه ينظرون إليهم كذلك وبعدها تدخل أحد الشباب قائلا:
- لا أحد يمنعنا من ممارسة ما نريد ما دمنا لم نعتدِ على أحد أليس

كذلك؟... أسامة ما بك ؟! (وأسامة ينظر جامدا إلى الفتاتين ولم ينطق بكلمة) بعد أن أمسكه صديقه وضغط عن كتفه أفاق وكأنه كان فى نعاس عميق أو حلم طويل.

- آه... أظن أن التعدى أصلا جاء منكما أنتما، ومن أنت أصلا لتعرفينى بظروف السكان وأخلاقيات التعامل مع الناس الذين من حولى (خاطبها أسامة وهو فى حالة من الاستغراب والغضب فى آن واحد)
- ردت عليه الفتاة السمراء: وأنا من الناس الذين يسكنون هنا وأعانى اللامبالاة منك ومن أصدقائك.
- أسامة: وأنا فى بيتى حر أفعل ما يحلو لي.
- أحذرك لآخر مرة إذا ما تجاوزت حدودك فلا تلُم أحدا وإنما لُم نفسك على سوء تصرفك مع الناس (واستدارت للفتاة التى كانت معها وخاطبتها برأسها قائلة: هيا لنرحل).

وتركت أسامة وأصدقاءه ينظرون متعجبين من جرأتها واسترسالها فى الكلام ناهيك عن تهديدها لأسامة وتحذيره دون أن يحرك ساكنا.

كانت ليلة ممزوجة بالمزاح والغضب فكلام أصحاب أسامة وضحكاتهم من عصبيته وإقناعه بأن فتاة لا معنى لها جاءت لبيته وأهانته وذلّته ولابد للانتقام له وأن يترك لهم فعل ذلك. فكان جواب أسامة الصمت فقط وهو ينظر إليهم حائرا مستغربا لما جرى له مع الفتاتين.

بعد مرور عدة أيام احتفل أصحاب أسامة بعيد ميلاد أحدهم. كانت سهرة صاخبة وكل هذا على شرف أسامة وفى بيته وباقتراح منهم، انتقاما من تلك الفتاة وحتى يعرف الجميع أن كل واحد حر فى منزله يفعل ما يحلو له.

كان رأى أصدقاءه ووافقهم الرأى والدليل على ذلك أن الموسيقى كانت تزلزل الحى وتعالت الأصوات والصياح واستمر ذلك لوقت متأخر أكملها الشباب فى مشاهدة مباراة كرة القدم كعادتهم فكانت هذه رسالة وجوابا على ما حدث خلال الأيام الماضية عندما هددتهم الفتاتين.

وما هى إلا لحظات حتى سمعوا طرقا للباب لكن هذه المرة بقوة فتحول الصراخ والتشجيع إلى سكون مفاجئ. قفز أسامة حينها من مكانه مفزوعا لفتح الباب قبل أن يكسر، ففوجئ بزيارة لم يتوقعها!

- شرطة، أنت صاحب هذا المنزل؟

- أجل أنا هو، ما الأمر؟

- هناك بلاغ ضدك بتهمة إقلاق راحة الجيران، أرجو أن ترافقنا إلى مركز الشرطة من فضلك.

وختمت السهرة بمفاجأة لم يتوقعها الجميع! حيث رافقهم إلى المركز أين دفع غرامة وأنذر بألا يعاود إقامة السهرات وإلا فليتحمل العواقب وهكذا تحولت حياة أسامة من رسم الطريق للوصول إلى طموحاته من خلال النجاحات التى كان يحصدها إلى زيارة مراكز الشرطة كالمجرمين والمخالفين للقانون.

*****

مضت أيامٌ بعد هذه الحادثة وأسامة يعيش فى عزلة. يعيد ترتيب حياته من جديد حيث بدأ يفيق من هذه الحياة التى يعيشها، كيف كان وأين أصبح حتى أن أصدقاءه كما يسميهم لم يعاودوا زيارته بسبب تغير طباعه.

وفى أحد الأيام وبينما هو منهمك فى عمله اتصل به أحد أصدقائه وأخبره بأنهم انتقموا له من الفتاتين حيث استأجروا شخصا كان مسبوقا

بعدة تهم ليذهب إلى منزل البنتين على أنه عشيقها وأمام جميع سكان الحى اتهمها بأنها كانت معه وأنها بنت شوارع ووعدته بأشياء كثيرة واليوم تركته بعد أن دخل السجن بتهمة السرقة وقد فعل ذلك بأمر منها وليحقق لها جميع رغباتها. وجاء يطالبها برد ماله الذى صرفه عليها.

لم يصدق أسامة ما سمعه وبدأ فى توبيخ صديقه. حينها تعجب هذا الأخير قائلا:

- ما بالك يا أسامة؟! لم تكن يوما هكذا ظننت أنك ستفرح، إضافة إلى هذا لن يشك أحد بنا. لا تخف فقد اتصلنا بهذا الشخص هاتفيا وأعطيناه النقود عن طريق شخص لا يعرفنا.
- فأجابه أسامة فى جوارحه (أنت محق لم أكن يوما هكذا) وبعدها خاطبه قائلا: وماذا جرى للفتاتين؟؟ لا أريد شيئا وأعترف أنى مخطئ وأرجو أن تبتعدوا عن الفتاتين وإلا فسوف أخبر الجميع بفعلتكم هذه. ولا أريد تنفيذ أى خطة أحذرك يا "جورج" وأنت تعرف ما الذى أستطيع فعله.
- حسنا أنت حر قررنا هذا لنرد لك الاعتبار لكن ما دمت رافض لن نجبرك وسنوقف خطتنا.

*****

مرت الأسابيع وبدأ أسامة يعود تدريجيا إلى سابق عهده ليعود أدراجه بخطى ثابتة من خلال التفاته لعمله ومحاولة تدارك ما فاته بعقد صفقات مع المتعاملين السابقين وعرض أحسن ما لديه وإرجاع الثقة لهم بتعاملهم معه، ومكانته التى ضيعها بالركض وراء سراب وخسر بعناده أعز الأصدقاء والأحباب وأفضل عقاب أن تكون العزلة رفيقه الوحيد. بعد أن امتحن من

كان يسميهم بأصدقائه وأوهمهم بأنه فى ضيقة مالية وأنه سيعلن إفلاسه وطلب منهم إقراضه مبلغا من المال ليخرج من أزمته فكان جواب كل واحد منهم التهرب والتثاقل أكيد مع تغيير عبارات التأسف والعجز والتعثر فى الإيضاح والتفسير إلا أن المعنى كان واحدا بالرغم من أنه اتصل بكل واحد منهم على حده، وطمئنوه بأنهم سيحاولون مساعدته لكن غابت أصواتهم ووجوههم منذ ذلك اليوم، عندها أدرك أسامة مكانة صالح ورفقته التى ضيعها فى لحظة طيش وعناد أو فى لحظة غباء وتهور.

رجع أسامة إلى الحى الذى يسكنه بعد يوم طويل مرهق أمضاه فى العمل. وقد أشعلت أضواء جميع البيوت بعد أن غابت الشمس وغابت معها كل الأيام الجميلة التى عاشها وتمنى أن يكملها أسامة مع كل من يحبهم، لكن هل ستعود هذه الأيام فالزمن هو الوحيد من يحكى لنا حقيقة الأحداث القادمة.

جلس الشاب فى بيته لا يعرف أى المشاعر يختار الندم أم الحزن البكاء أم القهر وكلها تصلح بعد أن ذاب الثلج عن أشواك اعتقد أسامة أنها مروج وسال بذلك ماء الثلج أحمر لأنه دم جرح به بسبب هذه الأشواك وأصبحت تجرى فى واد لونه أحمر عوض الأبيض يحكى هذا الأخير قصته لكل من زاره وأراد التمتع بالمناظر التى حوله ففوجئ ببستان ميت قاحل وواد مهجور امتلأ بالدم عوض الماء وصوته النحيب عوض الخرير.

هكذا كان قلب أسامة وهو ينظر متأملا وقد اشتاق للأيام الخوالى أيام رفقته مع صالح رفيق دربه والوحيد من ساندە فى غربته ومحنته.

الفصل الخامس

تحولت أيام أسامة لدقائق ترقب وحيرة ممزوجة بالخوف وهو دائما يطرح نفس السؤال أين اختفت الفتاتان؟ فهما لا تخرجان ولا أثر لهما خاصة وأنه دائما يلاحظ أضواء المنزل مشتعلة خلال الليل. لكن من يجيبه عن حالهما بعد أن سأل عن المنزل وعرف بأنهما جرتاه ويسكنان بالقرب منه.

وفى أحد الأيام وبينما هو فى المنزل إذ به يقوم مفزوعا وهو يتحدث مع نفسه:

- يكفي، صبرى نفذ وأنا أنتظر سأذهب وأتحرى عن الوضع مهما كلفنى ذلك ولا يهمنى ما سيحدث،

وقرر الذهاب لزيارة الفتاتين وتوجه بعدها مباشرة إلى المنزل وطرق الباب دون تردد لكن كانت دقات قلبه تتسارع متزامنة مع خطواته ووجهه شاحب لا يعرف ما سيقول وكيف يواجه البنتين إذا ما فتحت إحداهما له الباب. وما هى سوى لحظات حتى خرجت امرأة طاعنة فى السن يتراوح سنها بين الستين والسبعين سنة لكنها كانت محترمة جدا فمظهرها وطريقة لباسها تدلان على ذلك.

- صباح الخير سيدتى وآسف على الإزعاج (قالها أسامة وهو خجول وكان يحاورها بالإنجليزية).
- صباح الخير، نعم هل يمكننى أن أخدمك بشيء؟

- فى الحقيقة وقبل كل شيء أظن أنك تتكلمين العربية أو على الأقل تفهمينها؟
- أجل أفهمها جيدا لكن لا أتكلمها بطلاقة.
- أعرف ولهذا أحاول أن أتكلم معك بلغتك الأصلية (حيث أن أسامة جمع بعض المعلومات السطحية عنهم وعرف أنهم عرب مقيمون هنا منذ زمن طويل).
- ومن أين تعرف أننى أتكلم العربية؟ ولم أتعرف عليك بعد؟!
- عفوا أنا.. أنا جئت لكى أطمئن فقط على.. !! إن لم يكن هناك إزعاج لأننى قلقت عندما لم أرها... إذا سمحت لى (وأصبح يتكلم كلاما غير مفهوم وهو مشوش).
- لم أفهم شيئا مما تقول. هلا أوضحت لى كلامك من فضلك.
- فى الحقيقة أنا صديقها منذ زمن وكنت أدرس معها. وهذه الأيام انقطعت أخبارها حاولت الاتصال بها لكنها لا تجيب ولهذا تجرأت وجئت لزيارتها.
- فى الحقيقة ليس من المعتاد أن يزور الشبان ابنتيّ ولو كانوا أصدقاءهما ولكن من تقصد منهما؟ (وهذا ما لم يكن يتوقعه أسامة وكيف سيجيب على هذا السؤال)
- "لجين" أم "سارة"؟ (ومن حسن حظه أنها أجابت على سؤالها فورا قبل أن يُفضح أمره) وهنا لم يعد هناك مجال للاختيار أو التفكير يجب أن يجيبها بسرعة حتى لا يُكشف أمره مادام الحظ كان حليفه.
- لجين يا سيدتى (وهو أول ما خطر بباله).
- فى الحقيقة لا أدرى لكن من الصعب أن تقابلها، بل من المستحيل مقابلتها.

- لماذا يا سيدتي؟
- أعفنى من الجواب، إذا أردت أن أخبرها شيئا سأوصله لها.
- لكن أتوسل إليك لقد جئت من بعيد وتكبدت مشاق الطريق من شدة قلقى عليها تركت عملى وكل أشغالى (وكان يقول بينه وبين نفسه أرجو ألا تكون رأتنى من قبل أو عرفت أننى أسكن هنا ويكشف أمرى يا رب سترك). ثم واصل كلامه وهو يترجاها ويحاول إقناعها بالدخول وزيارة ابنتها.
- لكن يا عزيزى لا أستطيع. يكفى ما مرت به ويكفينا ألما.

بعد أن سمع أسامة هذه الكلمات تأكد أن شيئا ما حدث وهنا أصر على السيدة لزيارة لجين وترجاها حتى تمكن من إقناعها بعد جهد جهيد.

كان البيت جميلا رائعا مرتبا بطريقة توحى بأكابرية أهله ورقيّهم، جلس أسامة فى صالة الانتظار بعد أن استأذنته السيدة واتجهت إلى غرفة من الغرف حيث كان منكمشا على حافة الكرسى خائفا أو بالأحرى خجولا لا يعرف حتى سبب قدومه. لكن هناك ما دفعه للاطمئنان على الفتاة أو الفضول لمعرفة ما حدث.

وأخيرا جاءت السيدة لكن المفاجأة ليست بقدومها هى وإنما بمن يرافقها، لم يصدق أسامة ما رأته عيناه قام من كرسيه بحركة بطيئة جدا تنم عن استغرابه وحيرته، ووجهه الذى تغيّرت ملامحه واصفرّ لونه.

لجين تلك الشابة التى قدمت إلى منزله منذ أيام مهددة إياه جالسة اليوم على كرسى متحرك تنظر إليه مستغربة. وقف أسامة ولم يحرك ساكنا ينظر إليها وامتلأت عيناه بالدموع ينظر ولا يفهم شيئا.

- لجين: ماذا تفعل هنا جئت لتشمت أو لترى نتيجة عملك أهنئك لقد

نجحت. (بعدما صدمت لرؤيته وتجمدت حركات عينيها لفترة ثم انفجرت غاضبة).

- المرأة: من هذا يا لجين ولماذا تكلمينه بهذه اللهجة؟!
- استدارت لجين إلى السيدة (وعيناها تشعان غضبا، تأثرا وحزنا وهما ممتلئتان بفيض من الدموع): هذا يا عمتى جارنا المحترم الكريم الذى حرّض أصدقاءه ليفضحونى ويتهمونى فى شرفى وأصبحت العاهرة التى كانت مثالا للأخلاق والعفة وجاء السيد لكشف حقيقتى حيث كنت متنكرة بلباس الطهر لكنه جاء ليهدم حياتى أشكرك. فقط أجازيك بكلمة واحدة حسبى الله و...
- (قاطعها أسامة قبل أن تكمل): أرجوك يا لجين قبل أن تكملى اسمعينى أولا. لم يكن لى يد فى هذا صحيح أن الحقد ملأ قلبى عندما جاءت الشرطة إلى بيتى وزاد من حقدى تحريض من كنت أظنهم أصدقائي، لكن بعدها عدت لحياتى السابقة وأبتعدت عنهم شيئا فشيئا، كانوا يخططون من ورائى وهددتهم بعدم التعرض لك ولم أظن أنهم قاموا بفعلتهم الشنيعة ولكن أقسم لك أننى لن أسكت على فعلتهم هذه وسأنتقم لك.
- لا أريد شيئا منك، الله هو المنتقم الجبار صحيح أننى هددتك بإبلاغ الشرطة إذا ما عاودت إزعاجنا لكن لم أكن أصلا هنا خلال تلك الفترة، وعند رجوعى أخبرتنى سارة بما حدث وأظن أن أحد الجيران بلّغ عنكم.
- بعدها عمّ الصمت للحظة، ثم رفع أسامة رأسه بعد أن عبّرت كل حركاته عن شدة خجله. وسأل لجين وهو متردد يخرج الحروف

بصعوبة، عفوا لكن كيف حصل لك هذا؟

- فسارعت عمتها كما نادتها لجين وبادرت بالإجابة بالنيابة عنها وهى فى أوج غضبها: وما رأيك أنت أيها الشاب فمنذ ذلك اليوم المشؤوم وبعد أن قدم ذلك الفتى وأخذ يصيح ويتكلم كلاما بذيئا ويتهم صغيرتى بأشياء فظيعة كنا نحن الثلاثة فى المنزل ولم نصدق ما قاله ولم نفهم شيئا وفى تلك اللحظة اجتمع الجيران وأخذوه إلى مركز الشرطة.

فقدت على إثرها لجين وعيها وسقطت أرضا من شدة الصدمة ولم تُحرك ساكنا ومن حسن حظها أننا أخذناها بسرعة إلى المستشفى وتلقت العلاج اللازم ولولا ستر الله لتعرضت إلى شلل نصفى وأنا اليوم أحكى لمن تسبب فى عجزها وأدخلته منزلنا ولو عرفت أنك من تسّبب فيما حصل لصغيرتى صدقني... (وهى تنظر إليه بعين الحقد والغضب).

قاطعها أسامة قبل أن تكمل كلامها واسترسل فى الكلام وتحسه متألما موجوعا ولم يأبه لنظراتها:

- يكفينى ما أنا فيه من عقاب عوقبت من الزمن وتركت أعز الناس ورحلت أبحث عن سراب. دفعت الثمن غاليا وكان السبب اختيارى لأسوأ الأشخاص وأفظعهم حاولوا استغلالى وانجذبت لعالمهم فقط لأن عالمى أسود ولم يعد لى أمل فى هذه الدنيا (وسقطت دموعه على الأرض ولجين تنظر إليه بعد أن هدأت وهى مستغربة لحاله وقد تحوّل هو إلى الضحية). واليوم أنا السبب فى مرضك وسأكون سببا فى إعاقتك دون أن أعلم وسقط يقبل يديها ويبكى قائلا:

- أرجوك لا أريد شيئا غير أن تسامحينى فحالتى أسوأ من حالتك

يكفينى ما فات ولا أستطيع تحمّل المزيد فالظلم وقع على قبل أن أظلم أحدا أرجوك سامحينى لعلّ الله يغفر لي.

بعد أن هدأت الأوضاع وأخرج كل عما بداخله انقشع الضباب عن سوء التفاهم الحاصل بين الشاب والفتاة أو بالأحرى انقلبت الأدوار وتحوّلت الشفقة على أسامة عوض لجين عندما رأته فى هذه الحالة.

قُدمت القهوة لأسامة وانقلبت الأدوار وقبلت لجين اعتذار أسامة وتأكدت بأن ليس له دخل بكل ما جرى لها وأخبرته بأن حالتها ستتحسن بالعلاج الفيزيائى والرياضة. كما أخبرها هو بأن سبب مجيئه لدنمارك هو محاولة لتوسيع فروع شركته الأم فى الخارج ويحاول من خلالها تحقيق بعض طموحاته العالقة ضمن أحلامه، ولم يطيلا الحديث ورحل بعد أن شكرهما وعيناه تفيضان بالدمع وبعد أن خطى بضع خطوات خارج منزل لجين انفجر أسامة باكيا وقد اختلطت عليه مشاعر متناقضة لم يفهم معناها، وفهم إحساسا واحدا منها هو الندم على ما فاته وعلى الكثير من الأشياء أولها أهله وبعدها صداقة صالح التى خسرها فى لحظة طيش.

*****

- هل يوجد ما نأكله أو نشربه يا سيدى الفاضل (أسامة يخاطب صالح هذا الأخير الذى كان منهمكا فى مكتبه ولم ينتبه حتى لدخوله). وما إن سمع هذه الكلمات حتى رفع رأسه وهو غير مصدق
- أسامة...؟!!
- كيف حالك يا صالح؟ مرت ثلاثة أشهر وقد اشتقت لك كثيرا ولأيام صداقتنا.
- نظر إليه صالح ثم عاد وأكمل عمله وهو يقلب فى أوراقه ويعيد ترتيبها وكأنه لم يسمعه أو يراه.

- لهذه الدرجة يا صالح وكأنه لم يكن بيننا أيام جعلت من العلاقة العابرة واجبا ومن الواجب صداقة حتى اكتملت وأصبحت اليوم أخا لي، غيرتُ معنى كلمة الغربة بفضلك وأصبح وطنك وطنى والتأمت كل جروحى وكنت البلسم لألمي.
- أجابه صالح (وهو ينظر إلى المكتب ولم يوجه نظره إليه): الأفضل أن نُبقى معنى كلمة أخوة كما سميتها أنت بين قوسين قبل أن تغيّر مسيرتك وأفكارك ونمط عيشك، وبقائى فى المكتب لا يعنى أننى أنتظر عودتك بعد أن تفيق من غيبوبتك فما دمت شريكا لك وعندى ارتباطات وصفقات أبرمتها مع أشخاص لا ذنب لهم فى معرفتك فاضطررت للبقاء وإكمال واجبي. لهذا أرجو ألا تعود وصداقتنا انتهت منذ ذلك اليوم الذى نبهتنى بأن لا أتجاوز فيه حدودي.
- أنت أيضا لن تسامحنى وأنا اليوم أدفع الثمن، لكنك تعرف جيدا ما أعانيه وما مررت به وجدت نفسى أهرب من كل هذا العذاب إلى طريق اللهو واللعب لكن ما بداخلى بعيد كل البعد عن ما كنت أنتمى إليه.

جئت لتسامحنى وكنت ولا أزال أفتخر بصداقتك الله يغفر ويسامح فحاول أن تسامح أنت كذلك. على العموم أتمنى لك كل الخير سامحنى إذا سببت لك الإزعاج.

خرج أسامة وترك صالح جامدا وقد حن لأيامه مع صديقه لكنه لم يستطع أن ينسى ما فعله به ولم يتوقع ذلك فجرحه لا يزال مفتوحا ولم يلتئم بعد فكان كبريائه أكبر من أن يتنازل ويسامح.

*****

شهر مايو ٢٠٠٥ كان اليوم مشمسا لطيفا تتراوح درجات الحرارة بين ٢١ إلى ٢٥ درجة مئوية.

كان أسامة فى مكتبه يحاول إرجاع الأمور لسابق عهدها ويتعود على حياته الجديدة بعد أن قطع اتصاله بأحمد ووالدته وأكمل القطيعة مع صالح ولم يبق له أحد. فراح يحاول التكفير عن ذنوبه حيث كان يتردد فى أغلب الأوقات إلى بيت لجين ويأخذها إلى المستشفى من أجل المعالجة الفيزيائية.

عرف أن لجين يتيمة الأبوين ماتا والداها بعد مرض أصابهما وبقيت هى مع عمتها وابنتها، وهكذا بدأ يشع أمل جديد فى عينى أسامة بعد أن بدأت صحة لجين تتحسن شيئا فشيئا، وكانت الفتاتان دائمتى الاطمئنان على أسامة، وقد تعودتا عليه خاصة وأنه غريب ولا يعرف أحدا.

كان مكتب أسامة وكأنه مخزن لأوراق متناثرة ولا تسمع فيه غير الصمت هو رفيقه الوحيد وفى خضم كل هذا كان هذا الأخير غارقا فى أعماله خاصة بعد غياب صالح.

- آه سيد أسامة تواضعنا وأتينا ولم تأبه حتى بقدومنا. رفع رأسه إذ بسارة ولجين يحملان سلة صغيره وهما تبتسمان. وتحول بعدها فى لحظات مكتب أسامة إلى طاولة فطور وكانت فرحته بالفتاتين لا توصف.
- سارة: طال غيابك عنا يا أسامة، ولهذا قررنا المجيء لزيارتك لكن أرى أن ضغط العمل كبير عليك ولا بد أن توظف شخصا لمساعدتك.
- أسامة: لا تذكرينى يا سارة. لا أستطيع أن أثق بأحد من بعد صالح.
- لجين: آه صالح، الشاب الذى كنت تحدثنا عنه دائما.

- أجل، وأنا اليوم أدفع ثمن استهتارى وتعجرفى.

وبعد حديث مطول دار بين الثلاثة قامت سارة بتوضيب اللوازم التى أحضرتها قائلة:

- تأخرنا يا لجين ويجب أن نغادر.

-أسامة: لا يزال الوقت مبكرا على الذهاب، ولم نتحدث بعد.

- لجين: أكيد أنك تمزح، ستقلق عمتي.

وفيما الثلاثة يتحدثون إذ برجل وسيم طويل القامة فاجأهم ودون سابق إنذار قائلا:

- أظن أن أعمالك كثرت، سأشاركك. لكن هذه المرة ستكون نسبة أرباحى أكثر من النصف مدة خمس سنوات عقابا لك على عنادك وتهورك.
- التفتت الفتاتان لأسامة الذى كان واقفا كالتمثال ينظر فقط وبعدها قال: هذا أنت؟! لا أصدق.
- هل قبلت بشروطى أم أعود من حيث أتيت؟ ولم يكمل كلامه حتى ارتمى أسامة فى حضنه كطفل صغير وهمّ بالبكاء وهو يقول:
- أشكرك يا صالح على مسامحتك لى فقد ضعت من دونك، (كل هذا والفتاتان تنظران لما يجرى من حولهما باستغراب).
- لجين مخاطبة صالح: أخبرنا أسامة الكثير عنك حتى ظننته مغرم بك بعد أن عاود الجميع الجلوس.
- صالح: لا أعرف لكن ما جمعنى بأسامة ليست مجرد صدفة وإنما القدر حتى أغيّر نمط المعيشة الذى كنت أعيشه وأحيى تحت ظل عقيدة الإسلام، كل هذا جعل من أسامة أخا لي. صحيح أننى عاقبته

لكن صداقتنا كسرت كل العوائق ولم تكن يوما مخبأة وراء حاجب مزيف.

*****

عادت الأيام الخوالى وعاد معها الأمل من جديد. وفتح صالح بعد رجوعه لأسامة الكثير من الأبواب التى كانت مغلقة. وهنا قص أسامة كل ما حدث له وكيف تعرف على لجين وسارة وعادت المياه لمجاريها بين الشابين بعد عاصفة قوية.

توالت الأسابيع وكل شيء يعود لنصابه، ومع هذا تبقى الجروح مفتوحة ولم تلتئم بعد، فعلى الرغم من استدراك الكثير من الأمور وحتى الأخطاء إلا أن أسامة لم يستطع نسيان أهله وخسارتهم والسبب الذى جاء به إلى هنا، ولم يعد يرغب فى الحديث عنهم فاتصاله بعمته وأحمد قل كثيرا، وكأنهم لا يستطيعون مواجهة بعضهم خاصة بعد القرار الذى اتخذته عزة فلم يكن يبين جروحه وأوجاعه ومع هذا فصالح يفهمه جيدا ويحاول دائما التخفيف عنه بجميع الطرق.

توطدت العلاقة بين الشباب فى إطار الاحترام والمحبة فلجين وسارة وحتى عمتهم "روز" دائمات الاطمئنان على الشابين عائلة جديدة طالما تمنياها وحلما بها.

وعلى الرغم من أن أيام أسامة فى الدنمارك وبالضبط فى الشهور الأولى مرت بصعوبة وعذاب، قهر أحس فيه بالضياع والشتات وكأنها العلقم بمرارة أحداثها وكل التفاصيل التى منعته من رؤية هذه البلاد والاستمتاع بمناظرها الخلابة التى أصبحت اليوم أكثر إثارة ببهاء سمائها وخضرة أراضيها وتلون أزهارها فى بلد لُقب بصديق البيئة وما جعله يزداد جمالا

معرفته لصالح الذى نزع عن كاهله حملا ثقيلا واليوم لجين وعائلتها. إلا أن القلوب تعبت والعقول توقفت وكل ما يبتغيه المرء لا يتحقق.

كان بيت روز ملجأ لكل مسكين ومحتاج خاصة وأنها كانت مديرة أحد الجمعيات التى تتكفل باليتامى والمحرومين والمشرفة عليها. الشيء الذى زاد من إعجاب الشابين بها عندما كانا مدعوين عندها بمناسبة نجاح تلك الجمعية واحتفالا بمرور عشر سنوات على تأسيسها، كانت فرصة لتقص للأولاد حكايتها عندما سألها أسامة سبب ولعها وحبها للأيتام، قصة تعرفها الفتاتان جيدا لكن كانت مفاجأة بالنسبة لصالح وأسامة.

- كان والدى مسلما من أصول سورية وأمى تحمل الجنسية الألمانية، تزوجا ورزقا "بآدم" والد لجين أخى الوحيد، حاول والدى دائما غرس الدين فى روحنا وتصرفاتنا وفرض معتقداته لترتسم فى ذهننا أنا وأخي.

وبعد مرور سبع سنوات أصبحت الحياة مستحيلة بين والدي، وبسبب تفاقم المشاكل بينهما قررا الانفصال ولم تفكر أمى بعدها سوى بالرحيل من هذا المكان الذى جمعها بوالدى ورجعت لألمانيا.

وانسكبت دموع روز وهى تروى قصة عائلتها وصورة رحيل والدتها محفورة فى نفسها وقد رجعت بها الذكريات إلى سنوات بعيدة وهى تائهة لا تحرك شيئا من جسمها سوى شفتيها اللتين ترتجفان مع الدموع المنهمرة من مقلتيها.

- ترعرعت أنا وأخى آدم فى كنف والدى فرقتنا الحياة عن والدتي، وما كان يعزينى هو حب آدم لى حتى أنه وبعد زواجى أهدانى منزلا بالقرب منه حتى لا نفترق وكان سندى بعد وفاة زوجي.

سهرة فجّرت وجع روز وهى تقص حكايتها وفتحت جرح أسامة فى

صمت ولم يستطع البوح وقد أيقظت فيه كل أحزانه وذكرياته المؤلمة وهو يرجع بأفكاره لسنوات سويسرا التى قضاها رفقة والده ونورا حيث كان دائما يمازحهما وكيف كان يخلق المقالب لزوجة أبيه التى طالما اعتبرها بمثابة أمه.

كانت روز تحكى وهو يبتسم بينه وبين نفسه متذكرا الأيام التى حُرم منها ولم يتخيل يوما أنها ستصبح ماض أليم يبكى لتذكرها. كل هذه الظروف والأحداث وطدّت من علاقة الأربعة خاصة وأنهم كانوا من خيرة الشباب.

*****

مرت الأيام والليالى وفى أحد السهرات بينما أسامة وصالح منهمكان فى المكتب فاجأ هذا الأخير أسامة بسؤاله ودون سابق إنذار.

- أتظن أن لجين مرتبطة؟؟

- ماذا تقول؟ (قالها أسامة ولم يستغرب سؤال صالح) أحسست باهتمامك بها من خلال كلامك مع لجين وتغيَر نبرة صوتك واحمرار وجهك كلما رأيتها! لكنك لم تصارحنى أيها الماكر بمشاعرك.

- (صالح يتكلم بخجل): خجلت من مصارحتك. لم استطع البوح بمشاعرى واليوم لا أستطيع إخفاءها وأريد رأيك.

- لن تجد أحسن منها فقد رأيت بنفسك خلقها وأدبها وذكاءها حتى عائلتها أنصحك بالمبادرة لطلب يدها حتى لا تطير من بين يديك.

تبسم صالح وهو مُطأطئ رأسه وكان دليلا على مدى فرحته وخجله فى آن واحد. وعندما رفع عينيه نحو أسامة لاحظ انقلاب حاله وعيناه مفتوحتان نصف فتحة دليلا على حزنه، وأجابه مباشرة وقبل أن يسأله صالح:

- هذه هى فرحة الحب يا عزيزى وابتسامتها. هكذا كان حالى عندما أحببت عزة ويوم صارحتها مع أننى لم أخبرها مباشرة ومع ذلك فنشوة التعلق بإنسان تعتبره كل كيانك لا توصف وبالمقابل تخلّيه عنك كذلك شعور صعب يكسر كل ما ولد بداخلك ليصبح غبارا تأخذه نسمة ضعيفة من نسمات الهواء العابرة.

حينها قام صالح ووضع راحة يديه على كتف أسامة وضغط عليه مواسيا إياه:

-لا تحزن يا صديقى فالأيام القادمة تخبئ لك الأفضل إن شاء الله.

توالت الأسابيع وأصبحت حكاية صالح ولجين مكشوفة للجميع خاصة بعد ملاحظتهم لتصرفات صالح معها ومكالماته التى كثرت خلال الفترة الأخيرة بحجة العمل ومحاولة خلق الأعذار للقاء بها وتغيّر ملامحه عند رؤيته لها، وكانت لجين تقابله بخجل تجاه معاملاته التى تربكها دائما وعلى الرغم من أنها وجدت لها تفسيرا إلا أنها لم تشأ أن توهم نفسها بأحاسيس قد تكون خاطئة وليست فى محلها.

وتكررت الحكاية مع الفتاتين عندما كانتا فى الغرفة تشاهدان التلفاز ولجين تفكر فى أحداث الأيام الأخيرة وتصرفات صالح معها فاستدارت ومن غير سابق إنذار لسارة قائلة:

- لا أعرف يا سارة لكن ألم تلاحظى تصرفات صالح معى خلال الأيام المنصرمة؟ من خلال كلامه ومعانيه لاحظت أنه معجب بى لكن بطريقة غير مباشرة ناهيك على أنه إنسان مؤدب وجدّى فى كل تصرفاته لكننى لم أستطع إخبارك لأننى لست متأكدة وحائرة ولم أجد تفسيرا وأخاف أن أكون مخطئة فى توقعاتي.

- سارة: كل هذا يدور بداخلك ولم تخبريني، لا أصدق فأول خطوة لى كنت أنت شاهدة عليها وصارحتك بكل شيء من أول ما تعرفت على خطيبى حتى يوم قدومه لطلب يدى وأنت اليوم تخفين عنى مشاعرك.
- لجين: أنت قلتها مشاعري. لست متأكدة يا عزيزتى صدقينى وها أنا أخبرك وأنت أول من سيعرف بكل ما يحصل لى فليس عندى غيرك.
- سارة: فى الحقيقة أنا متأكدة من حبه لك، لكن ماذا عن مشاعرك أنت نحوه؟
- لجين: وما الذى يؤكد لك هذه المشاعر؟ هذا من جهة، أما من جهتى أنا لا أعرف فأحاسيسى كلها متناقضة. وأنا فى حيرة من أمرى وأريد من يخرجنى من هذا الغموض.
- سارة: لا تخافى الوحيد الذى يخرجك منه هو صالح، تعرفين كيف؟ بأن يصارحك بحبه وستجدين نفسك تبادلينه نفس الشعور وتقابلينه بابتسامة جميلة تعنى الرضا والقبول.

وضحكت الاثنتان بعد أن رمت لجين الوسادة فى وجه سارة من شدة خجلها.

وبدأت خطوات الشابين تسير فى اتجاه واحد لتتطور وتغيّر مسلكها نحو مسار الإعجاب والاحترام ضمن حيّز ضيّق. حيز التعارف فى أدق التفاصيل ومحاولة تقارب الأفكار من جهة أخرى بطريقة غير مباشرة قد تكون بسبب خجل صالح وحياء لجين.

لكن فكرة الإعجاب الذى ولد منه حب حقيقى اتضحت ملامحه بصفة جلية بين الاثنين، وبذلك يبقى أجمل سر يحتفظان به إلى حين يفاجئ الجميع، لكن تبقى أيام الإعجاب وحدها التى تحمل ذكريات وشاهدة على

ولادة حب اعتبراه فرحتهما الأولى.

*****

عام ٢٠٠٥...

فى الثلاثين من شهر سبتمبر استيقظت الدنمارك على الصورة التى لم يتوقع أحد ظهورها، صورة زعزعت العالم بأسره والإسلامى أكثر وفجرت كل الغضب حين أُسيئ للرسول "صلى الله عليه وسلم" برسم كاريكاتورى مستهزئين بسيد الخلق فى جريدة يولاندس بوستن الدنماركية، حيث نشرت له اثنتا عشرة صورة فى أشكال مختلفة ساخرين من الرسول الكريم. فلن تطلع شمس من الشرق ولن تغرب كعادتها وزهور لن تتفتح أبدا بكاء على الحبيب المصطفى "صلى الله عليه وسلم" الذى سيكون الحامى الشافع لنا يوم البعث. حينها بدأت الاتصالات بين الشباب الأربعة كباقى المسلمين وككل غيور على الرسول وسيرته...

- لم أصدق ما رأيته وسمعته (أسامة مخاطبا لجين وصالح).
- صالح: لقد اتصلت بى سارة منذ قليل وأعلمتنى بهذا الخبر فذهبت واشتريت الجريدة فورا وصُدمت بما رأيته.
- أسامة: هل يكفى أن ننشر الخبر ونبقى ننتظر ونتأسف. يجب أن نتحرك ونفعل شيئا. هل رأيتم تلك المقالة كتبت وعنونت "بوجه محمد" مرفقة باثنتى عشرة صورة للرسول.
- صالح: لا داعى للتسرع سنرى ما الذى يجرى وبعدها نتحرك.
- لجين: أوافقك الرأي.

كانت أيام وكأنها بركان انفجر بعد صمت طويل جر الذل والقهر ليتحرك الجبل أخيرا مخرجا كل غضبه بعد أن شوهت سورة المختار

الهادي.

مرت أيام وكأنها العاصفة وتحولت شوارع الدول كلها إلى مظاهرات وكل الأعين مثبتة فيما سيحدث أو بالأحرى فى ردود الفعل على الكاريكاتير المسيء للرسول "عليه الصلاة والسلام".

وفى تلك الليلة كان صالح فى بيت أسامة كعادته وقد رجعا للأيام الخوالى حيث كان يقضيان الليل فى العمل، وكانت أيام ترقب واهتمام كذلك بما يحدث فى شوارع العالم من جميع الغيورين على دينهم وعلى رسولنا الكريم صاحب الرسالة، سيد الخلق- صلى الله عليه وسلم- خاصة الدنمارك قلب الحدث. حيث طالبت جمعية المسلمين وتدعى "دانيش إسلاميك تروسمفوند" جريدة يولاندس بوستن بالاعتذار لجميع المسلمين لنشرها هذه الصور.

وبعدها بأسبوع وبالضبط يوم الرابع عشرة من شهر أكتوبر قام ثلاث آلاف وخمس مئة شخص بمظاهرة سلمية أمام مقر صحيفة يولاندس بوستن فى كوبنهاجن وكان ضمنهم أسامة وصالح وبرفقتهما لجين وسارة اللتان لم تفوتا فرصة الالتحاق بهما.

مرت الأيام والناس فى أخذ ورد والرأى العام فى تشاور واستشارات بين العقاب ورد الاعتبار. ودخلت الدول العربية فى مشاورات بين طلب الاعتذار وعقد اجتماعات ووصلت إلى حدّ مقاطعة المنتجات الدنماركية وغلق سفارتها فى هذه الأخيرة أو سحب سفيرها كما فعلت سوريا.

وفى خضم كل هذا كان صالح منهمكا فى عمله مشغولا لدرجة أنه كان فى عزلة عن الجميع ولم يتصل بأحد ولم يتصل به أحد، وأراد الاطمئنان على لجين وما يحدث فى العالم من أخبار.

رفع السماعة وأخذ يفكر هل يتصل بأسامة أم بلجين التى أدركت فعلا حبه لها من خلال تصرفاته الصريحة اتجاهها كدليل أو رسالة لها. وبقى هكذا ينظر وهو متردد ولم يع ما يفعل حتى سمع صوتا يقول:

- ألو، صالح أين أنت. وأفاق على صوت لجين وقد ضغط على الزر متصلا بها دون أن يحس.
- صالح: آ...، لجين عفوا كيف حالك؟ آسف لم أسمعك جيدا.
- لجين: والآن تسمعني، أنت من اتصلت وبقيت صامتا فاستغربت، المهم كيف حالك؟ وأين أنت؟!
- صالح: فى الحقيقة... (وكان ينوى أن يسألها إذا ما فكرت وقررت لكنه لم يستطع فغيّر الموضوع فى الحين قائلا): تعرفين ضغط العمل لدرجة أننى نسيت حتى الاتصال بالأحباب اعذريني، المهم كيف حالك وسارة وخالتى روز كلكم بخير؟
- لجين: الحمد لله، لكن ما دمت قلقا على خالتك روز لماذا لم تزرها ؟
- صالح احمرت وجنتاه خجلا، وسارع قائلا: إن شاء الله (وقد فهم أن هناك أملا بقبولها طلبه الزواج منها ولو أنها لم تقلها بطريقة مباشرة)، سأحدد يوما وأزوركم أنا وأسامة ما رأيك؟
- لجين: مرحبا بكم فى أى وقت. ابتسمت وأدركت من خلال كلام صالح أنه فهم قبولها لعرضه.
- صالح: وأسامة كيف هو؟ منذ أسبوع لم أسمع صوته أعرف أنه يتردد إليكم دائما الخائن، أما أنا لا يرفع حتى السماعة للاطمئنان على وأنا غارق هنا بين الملفات.
- لجين (مستغربة): أسامة ؟! لم أره منذ ستة أيام ظننت أنه معك

منهمك فى المكتب، لأن آخر مرة رأيته قال أن لديه أعمالا كثيرة ولابد عليه من إنجازها.

- صالح: لا لم أره ولم يتصل بي!

- لجين: حسنا سأذهب للمنزل ربما حدث له شيء سآخذ سارة معى وأذهب.

- صالح: حسنا وأنا سألحق بك، فقط اتصلى بى حتى لا يبقى بالى مشغولا ريثما أصل إليكم.

رغم جميع محاولات لجين وسارة فى طرق الباب، ومناداتهما لأسامة والاتصال به لكن لا أحد يجيب.

عندها اتصلت لجين بصالح وأخبرته بأنه لا يوجد أحد وأن فى الأمر خطبا ما، ونبهته أن يحضر معه مفاتيح المنزل لأنه يملك نسخة منها وهنا زاد قلق صالح.

دخل الجميع إلى المنزل بعد أن فتح صالح الباب فوجدوا المنزل على حاله مرتبا نظيفا لا يوجد فيه أحد. ولكن السؤال أين ذهب كل هذه الفترة دون أن يخبر أحدا. وبدأت الأسئلة تُطرح بين الشباب وتُركت بدون إجابة ولم يفهموا سبب اختفائه.

- ترى أين يكون؟! التقينا منذ أسبوع سهرت عنده ولم يتركنى أرحل فقررت المبيت. وأنت يا لجين هل رأيته؟ أو على الأقل لا أعرف... (وكان صالح متوترا وهو يخاطبها).

- لجين: أنا كذلك لم أره منذ ستة أيام (ثم بدأت فى البكاء) ماذا لو حدث له مكروه.

حينها قرر الجميع وبالإجماع إبلاغ الشرطة علهم يجدوه.

*****

مر أسبوع آخر ولا يوجد أى خبر عن أسامة والجميع متوتر قلق. صالح أغلق مكتبه وذهب إلى بيت أسامة حتى يكون قريبا وأول من يكون هناك فى حال طرأ أى شيء. أما لجين وعائلتها فقد مر ذلك الأسبوع عليهم وكأنه سنة خاصة هى التى انقلبت حياتها ففارقت البسمة والفرحة شفتيها وتذبذبت كل أمورها، عملها وحتى تعاملها مع الناس.

- لم يعد للصبر مكان فالأيام تمر ولا جديد يذكر عن أسامة، وبدأ اليأس يدخل شيئا فشيئا إلى قلوبهم والأمل يختفى مع اختفاء أسامة، صالح يتنقل من مدينة لمدينة يبحث عن أسامة وقليلا ما يتردد على مكتبه إلا للأمور المستعجلة وتدهورت حالة لجين وصالح وتدهور كل شيء من حولهما العمل وعلاقتهما بالناس فقط لأن شخصا مُهما كان بينهم واختفى دون سابق إشعار.

فى أحد الأيام وبينما كان صالح وكعادته يبحث عن أسامة، اتصلت به لجين على غير عادتها خاصة وفى ظل هذه الظروف وكانت تعرف أنه ذهب إلى المدينة المجاورة حيث يسكن أصدقاء السوء علّه ذهب عندهم، خاصة وأن صالح تردد كثيرا فى السؤال عنه لديهم لكن ما دام أن الأمر طال كثيرا فلا مجال للاختيار لكنه فى أعماقه تمنى ألا يجد أسامة هناك.

- لجين: ألو، صالح أين أنت؟
- صالح: لماذا؟ ما الأمر ؟
- لجين: حاول أن تعود بسرعة ولا تسألنى لماذا ؟ تعال إلى منزلى مباشرة.

بعد أن فتحت سارة الباب لصالح سألته مباشرة عن نتيجة بحثه لكن مظهره ووجهه كانا كافيين للإجابة عن استفسارها. وأعاد سؤاله قائلا:

- ما الأمر لماذا اتصلت لجين وطلبت منى العودة بسرعة؟
- سارة: لن تصدق، مفاجأة يا صالح لم تكن فى الحسبان. تفضل وستفهم كل شيء، تفضل بالدخول.
- دخل صالح فوجد لجين وعمتها برفقتهما شخصين غريبين لم يرهما من قبل. شاب حسن المظهر وسيدة كبيرة محترمة وحسب الشبه الواضح بينهما يتضح أنها والدته.
- لجين: صالح أقدم لك أحمد والسيدة نرجس، أخ ووالدة أسامة أظن أنك تعرفهما من خلال ما روى لك عنهما وأظن أنك تكلمت مع أحمد على حسب ما قال لنا، أليس كذلك سيد أحمد؟ (استدارت نحوه وسألته)
- صالح: (وهو فى قمة حيرته) أحمد والسيدة نرجس. لا أصدق ما أراه!!...
- أحمد: صالح كيف حالك؟ تمنيت كثيرا رؤيتك لكن ليس فى مثل هذه الظروف السيئة التى فوجئت بها ولم أتوقع سماعها. ثم تقدم وصافحه، سمعنا بخبر اختفاء أسامة عندما اتصلت بنا لجين وعرفت أننا أقاربه لم تتحمل والدتى الخبر وقررنا المجيء خاصة وأنه لم يكلمنا منذ أربعة أشهر. نحمد الله أنكم معه وصادف أشخاصا مثلكم.
- نرجس: (وهى تبكى بشدة بحرقة): كيف حالك يا بنى أتأسف لأننى لم أسلم عليك كما يجب لكن كنت أنوى أن أفاجئ ولدى فتفاجأت أنا باختفائه، آه... نار تحرق فؤادى لماذا يحدث له كل هذا؟
- صالح: لا تخافى يا سيدتى سنجده إن شاء الله، لكن كيف عرفتم عنوانه الجديد؟

- لجين: فى الحقيقة اتصلت بى سكرتيرتك من المكتب وأخبرتنى بأن هناك شخص اتصل من الكويت يبحث عن أسامة ويقول بأنه من أقاربه، حينها طلبت منها بأن تعطينى رقم هاتفه وأخبرته بالأمر عندما عرفتنى بنفسه وكان قلقا جدا عليه. كما أعلمنى بأنه يعرفك وحاول أن يتصل بك مرارا فى المكتب لكنه لا يجدك. واليوم تفاجأنا بقدومهما لأننى أعطيته عنوان منزل أسامة الذى استأجره ولاحظنا بالصدفة قدومهما وهما واقفين أمام منزله. بعد أن يأسا من طرق الباب.

*****

كان الجميع جالسا فى الصالون حول مائدة الشاى وروز تحاول أن تهدأ من روع نرجس وهنأتها على حسن تربيتها لأسامة وكيف أنه شاب مميز متخلق وتعتبره أخا لابنتيها، على الرغم من أنها تعرفت عليه منذ مدة زمنية قصيرة.

- نرجس: أنا التى يجب أن أشكرك على حسن استضافتك لنا والأكثر من هذا على استضافتك لولدى واعتباره كابنك، للأسف فحظه قليل جدا فى هذه الدنيا تداولت عليه الأمهات فى كل مكان ولم يجد أمه الحقيقية والتى بسببها فقد الكثير (وكانت لجين وسارة جالستان معا ينظران إليها بعين الحسرة ومستغربين كلامها فى نفس الوقت ولم تتجرآ على سؤالها).

أما فى الجهة المقابلة، وعلى الشرفة كان أحمد وصالح يتحدثان، كيف أن صالح تعرف على أسامة والصدفة التى جمعتهما وكانت حافزا بأن يتغير ريشارد سابقا ويتحول إلى صالح ذلك الشخص الذى كان بداخله إنسان

آخر لم يتجرأ يوما لكشفه أمام نفسه أو أمام الناس ليأتى أسامة جالبا معه الكثير وكانت أمه سببا وحجة لتتداخل كثير من الأحداث ويلعب الدور فيها أناس لم يتوقع يوما رؤيتهم لكن تعلمنا الكثير من هذه الحكاية لولا حادثة اختفاء أسامة فقط التى عكرت مسارنا.

كان صالح يتحدث وأحمد يستمع إليه بإمعان وقد روى له ما حدث بينه وبين أسامة فى الآونة الأخيرة وتعرفه على شلة من المتسكعين الانتهازيين وبعدها الصدفة التى جمعته مع عائلة لجين، وختم حديثه بحزن أسامة الذى لا يفارقه رغم ابتسامته الكاذبة وفرحته المزيفة عند سماعه لخبر خطبة عزة التى زادت من همومه وأحبطته وأصبح إنسانا يائسا لا يرى أو لا يريد أن يرى الأمل ولو من زاوية صغيرة، فقرر البقاء هنا فى الدنمارك كعقوبة حكم بها على نفسه ونفّذها وبذلك يكون القاضى والجلاد.

- أحمد: صحيح فحظه قليل، أعطى الكثير لجميع من يحبهم وفى الأخير تركه الكل وكذلك حبه الوحيد. أكيد أنه حكا لك عن عزة لكن للأسف لم أستطع التدخل وأنت تعرف القصة. المهم صالح (بعد أن تنهد تنهيدة طويلة تدل على خوفه وتذمره) هل نبدأ من جديد فى البحث عن أسامة وأعرف أننا أتعبناك كثيرا وأنا أطلب منك... فقاطعه صالح فورا.

- صالح: أرجوك يا أحمد أنت تجرحنى بكلامك هذا، فأنا لا أعتبر أبدا نفسى غريبا بينكم إلا إذا... ؟

- أحمد: لا العفو، أنت بمكانة أسامة والله شاهد على ذلك يا أخي.

وفى اليوم الموالى قررا بأن يبدآ من جديد عن أسامة علّهما هذه المرة ينجحان فى ذلك، ولم ييأس الشباب فى الاتصال بجميع معارف أسامة لكن دون جدوى وبقى الحال على ما هو عليه مدة شهر كامل.

وهذه المرة لم يبق أى أمل فى العثور عليه ويأس الجميع من عودته واختلطت جميع الأوراق فى غيابه وتدهورت حالة نرجس من شدة حزنها على أسامة وغيابه ولا أحد يطمئنها عليه وهى قابعة رفقة أحمد فى البيت الذى استأجره أسامة، تنتظر كل يوم خبر عنه على الرغم من أن لجين وعائلتها لم يتركوها لوحدها وحتى أحمد الذى كان دائما رفقة صالح ومع هذا فاليأس بدأ يطرق أبوابه فى عدم العثور على أسامة وهذا ما كان باديا على الجميع.

حتى عزة التى كانت تتصل كل يوم من الكويت علّها تسمع خبر عن أسامة، تغيّرت حياتها واختلطت عليها الأمور وأصبحت لا تكلم خطيبها الذى استغرب حالتها ولم تعد تلك الفتاة التى عرفها وبقى يستفسر ويلّح عليها دائما سر تقلب حالها. فأخبرته بأن أسامة اختفى ولم يظهر لمدة شهر وكل يوم تسوء حالتها وهنا أحس خطيبها بأن فى الأمر ريبا.

*****

كان الجميع ينتظرون خروج الطبيب ليطمئنهم على حالة نرجس التى أخذت حالتها فى التدهور يوما بعد يوم، والجميع ينتظر معجزة قدوم أسامة الوحيد القادر على إسعادها والسبب فى شفائها بعد الله.

وتحولت أيام البحث والتقصى إلى دقائق انتظار والجميع متخوف من تحولها إلى لحظات يأس بعدم ظهور أسامة. وبينما صالح فى بيت روز رفقة الجميع للاطمئنان على صحة نرجس إذ بهاتفه يرن.

- صالح: ما الأمر ؟ (كانت السكرتيرة).
- السكرتيرة: سيدى هناك رجل يريدك فى أمر عاجل جدا.
- صالح: أجلى ذلك لموعد آخر فأنت تعرفين ظروفى.

- السكرتيرة: لكنه يقول لأمر خاص وهو هنا يريد التكلم معك (فقاطعها السيد) قائلا: أخبريه إنه لأمر شخصى يهمه ومستعجل جدا. أعطنى السماعة من فضلك.
- الرجل: ألو، صباح الخير سيد صالح فى الحقيقة أريد أن أتكلم معك وجها لوجه، وأتمنى ألا ترفض لأنه أمر خاص جدا ويهمك. فقط أعطنى عنوانك لأننى أعرف ظروفك جيدا، ولا أستطيع التحدث فى الهاتف أكثر إذا سمحت فهو أمر عاجل جدا فاستغرب صالح إلحاح الرجل لمقابلته، رغم أن ظروفه لا تسمح إلا أنه وافق على طلبه.

كان الرجل فى الموعد تماما عرفه صالح كما وصف له نفسه، كان رجلا شابا قوى البنية حسن الوجه ومن مظهره يتضح أنه إنسان مثقف ومحترم. سلّم عليه ودعاه للجلوس بعد أن طلب له فنجان قهوة.

- أولا أقدم لك نفسى سيد صالح: أنا "محمد" طبيب أقيم هنا منذ خمس سنوات جئت لإتمام تخصصى فى جراحة القلب. أقيم عند عمى الذى يسكن هنا منذ زمن طويل أكثر من عشرين سنة وأعتبره كوالدي.
- صالح: تشرفت بمعرفتك إذن أنت عربى مسلم؟ لكن من أين تعرفني؟!
- محمد: أكيد أنا مسلم وجزائرى الأصل، أما عن سؤالك كيف أعرفك، هذا هو سبب دعوتى لك. فى الحقيقة (تقدم نحوه وبصوت خافت) أعرفك جيدا ومن كلمنى عنك هو أسامة.
- صالح: (صاح) أسامة! لكن أين هو؟
- محمد: أرجوك أصمت. إنه بخير فقط تمالك نفسك.

*****

كان المكان بعيدا معزولا وسط الغابة والسيارة تسير ببطء بسبب الطريق غير المعبد ولم يلمح صالح أى شيء وبدأ ينتابه الارتباك والشك وأحس محمد بذلك من تصرفاته، تردده وخوفه فطمأنه وبطريقة ذكية.

- محمد: اشترى عمى هذا المنزل خصيصا للاستجمام حتى يهرب من ضوضاء المدينة وصخبها. تعرف يا سيد صالح أسامة من أروع الأشخاص الذين قابلتهم وواضح أن أصدقاءه مثله وأنا أرى ذلك جيدا فخوفك عليه يدل على أنكم أكثر من الأخوة. وبعدها غيّر حديثه عن أسامة ثم عاود قائلا:

-آه... وصلنا تقريبا البيت هناك وسط تلك الأشجار أنا أراه هل تلمحه أنت؟

- محمد: تفضل وستفهم كل شيء. كان البيت رائعا من الخارج كأنه صنع بيد فنان من القرميد الأحمر والخشب ويسبقه بستان صغير مزوق بأبهى أنواع وألوان الزهور. ومن الداخل كان جميلا ومرتبا ومرصعا بأشياء بالرغم من بساطتها إلا أنها كانت موضوعة بشكل مدروس ومنمق وفيه كل مستلزمات الراحة والاستجمام.

جلس صالح بعد أن استأذنه الشاب ودخل عبر ممر طويل وتركه ينظر ويتأمل المنزل وقد لفت انتباهه تلك الخزائن الصغيرة الحجم والكبيرة المنحوتة وعلى رف إحداها صور لطفلين صغيرين وبجانبها صورهم وهم كبار رفقة رجل وامرأة ومن الواضح أنها عائلة عم محمد.

وبعد هنيهة رجع الشاب وطلب من صالح مرافقته وأدخله إلى إحدى الغرف بعد أن فتح الباب بلطف وكانت المفاجأة.

أسامة فى الغرفة وحول رأسه ضمادة حيث كان يغط فى نوم عميق وكأنه

رضيع، كل هذا وصالح مسمر جامد فى مكانه، لم يع ما يرى أهو فى حلم أو حقيقة طالما انتظرها.

- محمد: لا تفزع يا صديقى ولا تقلق إنه بخير لقد تجاوز مرحلة الخطر، والآن شرب دواء جعله ينام قليلا.

- وقف صالح ينظر مطولا إلى أسامة وهو غارق فى النوم مستغربا لحاله وقد كان مجروحا من رأسه وآثار ضرب على وجهه وامتلأت عيناه بالدموع.

لم يفهم ما سبب كل هذا واقترب منه ببطء بعدها استدار نحو محمد وكانت علامات الحيرة بادية على وجهه ودون أن يسأله طلب منه الشاب العودة إلى صالة الجلوس ليشربا الشاى ويخبره بما حدث وينهى حيرته التى ملأت عيناه وهو ينظر لصديقه.

- بعد أن أتممت دراستى الجامعية قررت المجيء إلى الدنمارك وبإلحاح شديد من عمى لأنه يعيش وحيدا مع زوجته فأولاده رحلوا إلى أمريكا.

وحينها اصطدمت بالواقع الذى كان صعبا وسهلا فى آن واحد سهلا لأننى لم أجد عوائق كالتى يجدها زملائى المغتربين والذين جاءوا لنفس الغرض الذى جئت من أجله إكمال دراستهم والعمل.

ومع هذا فقد رفضت أن يكون عمى هو معيلى رغم أنه كان ميسور الحال وطلبت منه العمل فاقترح أن أعمل معه لأنه يملك متجرا كبيرا وعلمنى مهنة بعيدة كل البعد عن دراستى كنت أمسك له حسابات المتجر، أما الشيء الصعب الذى لم أتحمله هو الغربة.

مجتمع آخر وتقاليد أخرى ومعتقدات مختلفة فكان الشيء الوحيد الذى أجد فيه متعتى هى الصلاة فى مسجد قريب من الحى الذى يسكن فيه

أسامة، هذا الشاب الذى تعرفت عليه بالصدفة عندما كنت أراه دائما يأتى قبل صلاة العشاء يجلس فى زاوية معينة ويبكى فى صمت وقطرات من الدموع تتساقط على زرابى المسجد وهو مطأطأ رأسه.

كنت أتألم لرؤيته وهو بهذه الحالة، وبقى هكذا مدة أيام بعدها قررت أن أسأله لأن حالته كانت تدعو للشفقة وكنت أتألم لحاله رغم أننى لا أعرفه، وعرفت بعدها وبعد أن تعودنا على بعضنا أنه كان يبكى من ظلم وقع على فتاة تسكن بجواره مما أدى إلى شللها وكان هو السبب فى ذلك دون أن يعلم.

وهكذا شيئا فشيئا توطدت العلاقة بيننا حتى أصبحنا وفى فترة وجيزة من أعز الأصدقاء، فأخبرته عن طبيب يعالج فيزيائيا هو بروفيسور وإن قبلت الفتاة سأعرفه بالطبيب، ففرح أسامة واصطحب تلك الفتاة وتدعى... قاطعه صالح: لجين. وأكمل محمد قائلا:

-بعدها تكونت صداقة كبيرة بينى وبين أسامة لدرجة أنه أخبرنى بكل شيء وسبب قدومه إلى هنا وكان ينوى أن يعرفنى عليك لكن للأسف الظروف وضغط العمل.

وبقينا هكذا حتى جاء اليوم الغير متوقع للكاريكاتير المسيء لسيد الخلق، عمّت الفوضى وانفجر الغضب العربي. وبعد هذه الحادثة بحوالى أسبوع وكعادته أسامة جاء للصلاة فوجد حشدا من الشباب الغيور على دينه ورسوله والغضب يملأ أعينهم واتفقنا بعد صلاة العصر أن نتجمهر للقيام من جديد بمظاهرة سلمية وكسر جدار الصمت ما دام الأمر وصل إلى حد الإساءة إلى رسولنا الكريم- صلى الله عليه وسلم -.

بعد الصلاة مباشرة خرجنا إلى الشارع ورفعنا اللافتات لمعاقبة من

أساء لنبينا المختار- صلى الله عليه وسلم- وكنا حوالى الثلاثين شابا يمكن أن تقول أنها كانت مسيرة منعزلة تطوعا منا فقط لإطفاء الغضب الذى كان يعترينا دون تنظيم أو اتفاق مسبق لهذا لم يسمع بنا أحد.

وكان أسامة إلى جانبى ضممنا اليد باليد وبدأنا نردّد الشعارات ونهتّف بطريقة سلمية واستمرت المظاهرة هكذا لكن مع مرور الوقت بدأت الشرطة فى ممارسة العنف ضد المتظاهرين والتهجّم عليهم خاصة مع ما يحصل الآن بسبب هذه القضية وردود الفعل الحاصلة حيث وجدت الدنمارك نفسها على الحافة وتحتها فجوة يملأها بركان يكاد ينفجر.

وما هى إلا دقائق حتى اختلط الحابل بالنابل وتحوّلت المظاهرات إلى اشتباكات بين الشباب المتظاهر والشرطة ومن حسن حظنا أن الشارع حيث بدأت الاشتباكات لم يكن رئيسي، حينها بدأت أبحث عن أسامة وأنا مفزوع.

وفى خضم تلك المشاجرات وبالصدفة استدرت إلى الرصيف على يمينى فوجدت شرطى يمسك بأسامة والآخر يضربه بالعصا على ظهره ودون أن أعى ما أفعل ركضت وأخذت أضغط على رقبة الشرطى وأضغط حتى كدت أن أقتله ثم تركته وساعدت أسامة على الوقوف، ولم نكن نعلم أن ذلك الشرطى نهض من جديد وكان وراءنا وبعدها أخذ العصا وضرب ساقى بكل ما استطاع من قوة فسقطت أرضا، ولم أستطع الوقوف فاستدار أسامة وأمسك بيد الشرطى فى الوقت المناسب ومن حسن الحظ انه كان ملثما وأخذ العصا بقوة من يده بعد أن لكمه فسقط الشرطى فوق قضيب حديدى وتماما على مؤخرة رأسه.

رآنا شرطى آخر فجاء يركض وبكل قوته ضرب أسامة على رأسه بالقضيب فسقط كجذع مكسو، لكن خروجنا للشارع كان على حق فالله الحق أنقذنا، حيث أن ذلك الشرطى رجع مهرولا إلى زميله يطلب المساعدة

لأنه سقط على رأسه فانتهزت الفرصة وحملت أسامة ودخلنا شارعا ضيقا جدا واختبأنا وراء برميل كبير حتى هدأت الأوضاع واتصلت بعدها بطبيب صديق لى أحضر سيارته واتجهنا إلى هنا مباشرة.

كان أسامة فى حالة خطيرة أسعفناه بما استطعنا وأحضرنا جميع اللوازم الطبية لذلك، لكن كان من المستحيل أن نأخذه إلى المستشفى والمخاطرة بحياته خاصة إذا توفى ذلك الشرطى فأكيد أنهم سيبحثون عن أسامة على الرغم من أنه كان ملثما بمنديل وهو ذكرى من والدته احتفظت به له صديقتها الوحيدة حسب قوله، الشيء الذى أنقده وهذا من حسن حظه.

ومنذ ذلك اليوم وأسامة فى غيبوبة ولم أستطع أنا الخروج خفت أن أكون مراقبا حتى تهدأ الأحوال ولم أستطع حتى العثور على هاتفك، حاولت أن أرسل لك أى شخص من أصدقاءنا لكن خفت أن تكون أنت كذلك مراقبا وانتظرت حتى تهدأ الأحوال. ومنذ أيام استيقظ أسامة من غيبوبته واستطاع التكلم وأعطانى عنوان مكتبك هذه هى كل القصة.

– صالح: لا أعرف يا محمد كيف أشكرك تمنيت لو التقينا فى ظروف أخرى لكن للأسف. المهم أترك لى مهمة معرفة إذا ما كان ذلك الشرطى بخير أو إذا ما كان هناك بلاغ مرفوع ضد أسامة أو ضدك، فعندى صديق يعمل فى الشرطة، أما الآن لا بد أن أخبر أهله ليطمئنوا عليه.

– لكن حتى نتأكد من أن الخطر زال تماما ولم يعد هناك أى مشكل.

وفيما هما يتحدثان حتى سمعا صوت أسامة ينادي: محمد أين أنت فذهب صالح يركض ومحمد وراءه. ولم يصدق أسامة ما رآه. هل هو فى حلم أم هى حقيقة صالح أمامه وينظر إليه مبتسما.

– أسامة: صالح هذا أنت هل أنا فى حلم أم هذه حقيقة؟!

- صالح: حقيقة يا أخى وكل هذا بفضل محمد. ثم جلس ورفع أسامة إليه بلطف وحضنه ودموعهما تشرح اللقاء، لا أصدق أنى أحضنك فقدت الأمل فى رؤيتك من جديد يا أخى لما فعلت بنا هذا؟

بعد أن هدأ الشابان من هول المفاجأة الممزوج بالفرحة بسبب اللقاء، جلس صالح وقصّ على أسامة كل ما جرى فى غيابه. حُزن لجين وقدوم نرجس وأحمد. كل هذا لم يتوقع أسامة سماعه وقد فاضت عيناه بالدموع وبقى ينظر لصالح بصمت ودون أن ينطق بحرف واحد.

وعلى الفور اتصل صالح بصديقه وحاول معرفة المدرجين فى قائمة الأشخاص المشبوهين والذين قاموا بمظاهرات ضد من أساء للرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- أو الموقوفين فأخبره بأنه لا يوجد أصلا قائمة بذلك ولم يتم اعتقال أى شخص. وهنا اطمئن الجميع بأنه لا يوجد أى خطر على أسامة أو محمد الذى أنقذ حياته. وكان جواب صالح حين شكر محمد على صنيعه هذا.

*****

دخل صالح إلى بيت لجين فى ساعة متأخرة من الليل. وقد غاب يوما كاملا دون أن يعرف أحد مكانه حتى أن هاتفه كان مغلقا وترك الجميع على أعصابه. وأول ما فتحت له سارة الباب همّت بسؤاله عن مكان اختفائه يوما كاملا سبقتها لجين وقاطعتها، من الصالة متحدثة أين كان الجميع مجتمعين.

- لجين: أهلا سيد صالح الحمد لله على سلامتك، على الأقل تذكر أنه يوجد أشخاص قلقون ينتظرون أى خبر بفارغ الصبر ويعيشون على أعصابهم. أما سيدى الكريم فهو فى جولة يتنزه ونحن نعيش الكارثة التى تحولت إلى كوارث بعد اختفائك وحسبنا أن مكروها قد حل بك

أنت أيضا (كانت تحدثه وهى فى أوج غضبها).

- صالح: لا أفهم يا لجين أنت تعاتبيننى أم من خوفك على تخاطبيننى بهذه اللهجة (وكان جوابها الصمت وهى تنظر إليه) لن أقول شيئا ولا كلمة واحدة، أما سؤالك عن اختفائى فإجابتى ستكون غدا وستعرفون جيدا أين كنت وما سبب تجوالى ونزهتي. ثم خرج وركض وراءه أحمد وترك الجميع ينظر مندهشا.
- حينها استدارت سارة ووبخت لجين قائلة: لم تتركيه حتى ليلتقط أنفاسه وهاجمتيه أعجبك ما فعلته جعلته يرحل مباشرة وهو منزعج. فأحست لجين بالخجل من اندفاعها ودخلت غرفتها وهذا كله كان بسبب الحزن والخوف والغضب فى آن واحد وهى لا تعرف كيف تشرح مشاعرها المتناقضة.

يوم جديد أوشك هو الآخر على نهايته، وملّ الجميع من انتظار صالح لم يعد حتى الآن وهاتفه مغلق ونرجس مريضة وحالتها لا تسمح لها بالجلوس والانتظار. ولهذا قرر أحمد أن يذهب هو وأمه للاستراحة قليلا فى منزل أسامة وغدا يوم جديد ونرى ماذا سنفعل إن شاء الله (كل هذا قاله أحمد لسارة وهو يتكلم معها بصوت خافت).

- سارة: لا تقلق يا أحمد على الأقل تناول العشاء معنا فأمك مريضة وبعدها نرى ما نفعل. قد يأتى صالح فى أى وقت.

مرت ساعة ولجين وسارة تحضران مائدة العشاء فى صمت وعلامات القلق والغضب بادية على وجه لجين وأحمد يتصفح أخبار الجريدة، أما نرجس وروز فتتحدثان فى الصالة عن ذكرياتهما وما مرت به كل واحدة.

وبدأت نرجس تروى لها قصة أسامة محاولة التخفيف عن حزنها بالرجوع إلى ذكريات عاشتها وتركت بصمة عندها وعند أسامة، وأخبرتها

كيف تربى هذا الأخير عندها دون أم وكيف أن والدته رحلت ولم يعرف أحد عنها شيئا حتى ظهرت صديقتها خلود وأخبرته الحقيقة التى لم يتوقعها أحد، حقيقة سفرها وهروبها من العذاب وأنها جاءت هنا للدنمارك لهذا وُلد ذلك الإصرار الكبير لدى أسامة للبحث عنها، وفى المقابل خسر الكثير.

- روز: سبحان الله يا عزيزتى كيف أن مشاكل الناس نفسها أو بالأحرى آلامهم وأحزانهم متشابهة، كل من ترينه ويفتح لك قلبه تجدين جروحه تسيل دما ويبقى الأمل فى الأيام القادمة علّها تأتى بالأفراح حتى تُشفى هذه الجروح.

وبينما هم كذلك حتى سمعوا طرقا خفيفا فى الباب فنهض أحمد مسرعا وماهى إلا لحظات حتى سمعوه يصيح قائلا: لا أصدق ما أرى لك كل الحمد يا رب...، والجميع ينظرون والأعين متجهة للباب الرئيسي.

*****

رجع أسامة... مفاجأة غير متوقعة كان المشهد رائعا تنزل فيه الدموع على الخد لتصف جرح الروح ووجع القلب

كان مشهدا لا يوصف بالكلام وإنما تصفه العين فقط التى شاهدت صورة تفسر كل المشاعر المتناقضة حزن وفرح واشتياق وملام.

كل هذا فى وقت واحد وأسامة يحضن نرجس التى لم يتوقع قدومها رفقة أحمد. أما لجين التى أعادته لطريق الصواب هى وعائلتها وكانت دموع الحاضرين هى الراوى للقاء تمناه الجميع وتخوفوا من عدم حصوله.

- ظننت أننى لن أرى هذه الوجوه النيّرة بعد الآن. صحيح أننى أردت الاستشهاد فى سبيل رفع راية تحمل اسم الله ورسوله الكريم- صلى الله عليه وسلم- فى تلك اللحظة حين جُرحت وضُربت وفى خضم تلك الاشتباكات تمنيت فقط أن أرى أمى نرجس لتسامحنى على كل عذابها

وأشكر أحمد على أخوته وصالح على صداقته ولجين على غفرانها أما عزة على وفائها وصبرها وأتأسف لها لأننى خذلتها ولكننى أنا الذى خُذلت وخسرت كل شيء.

- صالح: لا تقل ذلك فنحن معك وكلنا عائلتك.

- أسامة: (وهو يبكى وكل من حوله كذلك): هذا عزائى رافقتمونى دون مقابل ظلمت وظُلمت من دون قصد واليوم أنا فقط من يدفع الثمن ومع هذا شكرا لكم جميعا فحبكم من ساعدنى على الاستمرار. وتجتمع العائلة حول طاولة العشاء ليلة لم يتوقعها أحد فقد كانت ليلة من ألف ليلة وليلة سهر فيها الجميع حتى الصباح متحدثين ومشتاقين ومتناسين كل ما فات من آلام وأوجاع.

*****

كان صباحا جميلا مشرقا لم يحسّ أبدا أسامة بفرحة كفرحته هذا اليوم رغم تعبه ومرضه إلا أن هناك صدفا خُلقت لتمحو بعضا من أحزانه وهمومه فالجميع مجتمعون على طاولة الفطور وقد حُملت بأشهى أنواع الأكل مستقبلين بها رجوع أسامة.

كان الجميع يتكلم فى وقت واحد وأحيانا يعم صمت تام لينصت الجميع لشخص واحد ومرة أخرى يتكلم شخصين أو ثلاثة على حدة ويختلط الكلام ولا يفهم منه شيء.

وجاءت الفرصة حيث كان الجميع يتحدثون منشغلين بأسامة فانتهزها صالح وانسحب بلطف ووقف بجانب لجين وهمس بصوت خافت:

- إذا فهمت تجوالى وتنزهى أين قضيتهما، فابتسمت لجين بخجل وهى صامتة تنظر إليه معبرة عن أسفها.

وفى خضم هذه الجلسة سكت أحمد قليلا وشرد وانتبه له صالح

فضحك قائلا:

-أنت فى عالم آخر يا صديقى أحسد من أخذ عقلك. لكن بقى أحمد صامتا لبرهة وبعدها فاجأ لجين قائلا ودون سابق إنذار.

- ماذا كان اسم والدتك يا لجين (وهنا فوجئ الجميع من كلام أحمد واستدار نحوه الجميع حيث كان جادا وحاجباه معقودتان وعيناه حادتان تنم ملامحه عن جديته).

-أجابته لجين بفزع وهى متفاجئة ومستغربة: خديجة لكن لماذا؟

- أحمد: ليس تدخلا فى شؤونك لكن الأمر بالنسبة لنا قضية مصير وستحل ألغاز كثيرة. أود فقط معرفة ماضيها إذا سمحت من باب الفضول.

الجميع مندهش خاصة أسامة الذى بقى صامتا يترقب نهاية هذا الحديث وما يهدف إليه أحمد، فنظرت لجين إلى عمتها التى حركت رأسها بالموافقة وكأنها أعطتها الضوء الأخضر للكلام والجميع مندهش خاصة أسامة.

- لجين: فى الحقيقة أراه سرا ولا أعرف لماذا أعتبره كذلك، لكن قبل وفاة والدتى وخلال فترة مرضها أخبرتنى بأنها تنوى أن تصارحنى بأمر بشرط ألا أحاول الاستفسار كثيرا فللقدر كلمته حتى يأذن الله بذلك وألا أعيد غلطتها.

هذه الكلمات التى بدأت بها والدتى حديثها ووعدتها بألا أحاول البحث كثيرا فى ماضيها بعد أن طلبت منى ذلك. حينها أخبرتنى بأنها جاءت للدنمارك نتيجة اضطهاد وخوف وعذاب، وعندما سألتها عمن تسبب لها فى ذلك رفضت أن تجبنى ثم قدمت لى صندوقا به مجوهراتها وكان هديتها لى وشيئا آخر كان بمثابة ثروة لها. هكذا اعتبرته...

- أحمد: يمكن أن نعرفه؟ إذا لم يكن هناك إحراج أو تطفل.

- روز: لماذا كل هذا الإصرار يا أحمد؟

-أحمد: وإذا اكتشفت هذا الشيء هل تصارحينا بالحكاية يا سيدتي؟

تغير وجه روز وأصبح شاحبا مصفرا عندما سمعت كلام أحمد وطريقة حديثه، فقد كان سريعا وذكيا حيث فاجأها ودون أن ينتظر جواب لجين وكأنه يعلن تحديا بينه وبين روز ولم تفهم إصراره وجديته فى الكلام حتى أن ملامحه تغيرت وكأنه شخص آخر وسكتت قليلا والجميع ينظر إليها وبعدها أجابته قائلة:

-أجل سأخبرك

- أتعديننى بذلك أمام الجميع بأنك ستصارحيننا بالحقيقة. وكان مصرا.
- روز: أعدك بذلك. وكأنه تحد بين الاثنين والجميع مستغرب ينظر وينتظر.
- أحمد: يوجد بداخل الصندوق رسالة أو بالأحرى نصف رسالة تركتها السيدة خديجة إذا كان فعلا هذا اسمها، وأنت من ستحلين هذا اللغز يا سيدتي. وهنا صُعق الجميع وهم ينظرون بانتباه لا يحركون رؤوسهم ولا حتى أعينهم.
- ولم يبق لروز إلا أن تفى بوعدها وهى مصدومة تنظر إلى أحمد وقد فتحت عينيها ولم تحركهما ولم تتوقع منه هذه الإجابة. وبقى الجميع صامتا يحوّلون أعينهم بين روز وأحمد وكأنهما فى مناظرة كلامية.

صمتت روز للحظات وهى منبهرة، طأطأت رأسها ولم يعد للصمت مكان وكانت لحظات المصارحة فاسترسلت فى الكلام بعد أن رفعت نظرها نحو لجين وهى شاردة العينين متفاجئة لتحكى ذكريات ماضى أناس ماتوا لأشخاص لم تتوقع رؤيتهم تنهدت بقوة وكأنها تخرجها من العمق.

كل هذا وأسامة جامد كالتمثال لا يحرك ساكنا.

- كيف أنسى تلك الإنسانة الرائعة التى دخلت حياة أخى وحولتها إلى أمل وابتهاج. جاءت إلى حيّنا وكانت شابة فى مقتبل العمر وعملت فى متجر كبير راق لبيع الملابس وكنا أنا وزوجى نتردد إليه دائما، وكنت أنتقى ملابسى وملابس زوجى وأخى آدم وبعدها لسارة وكان عمرها آنذاك سنة.

وحين كان زوجى مسافرا كان يرافقنى أخى وهناك تعرف آدم عليها، بعدها أصبح يتردد كثيرا إلى المتجر وانتبهت لإعجابه الكبير بها وفى فترة قصيرة لم تتعد الشهر. وكنت أعرف ذلك من خلال الملابس الكثيرة التى كان يبتاعها لى وخاصة لسارة.

وجاء اليوم الذى أخبرنى بأنه يود الزواج من هذه المرأة وأنه صارحها بحبه وطلب الزواج منها لكنها رفضت. وعندما ألحّ عليها وطمأنها أخبرته بأنها ستفكر وبعدها بمدة قبلت عرضه.

فى بادئ الأمر لم أتقبل فكرة زواجه للمرة الثانية خاصة أنه كان ميسور الحال وظننت أنها طمعت بثروته، كانت الفرحة تملأ عينيه وروحه، على الرغم من أننى لم أرحب بالفكرة من الأساس إلا أننى وافقت فى النهاية لأن أخى عاش وحيدا، كما أنه عقيم لا ينجب وكان هذا سبب طلاقه.

تمت مراسيم الزواج بشكل بسيط وبعد فترة قصيرة استطاعت تلك الشابة أن تخلق مكانة مميزة بيننا لطيبة قلبها ورزانتها كما أدخلت البهجة إلى حياة أخى التى فقدها منذ سنين على الرغم من أن الحزن كان الرفيق الوحيد لها وكل هذا كان مرسوما فى عينيها، وتوطدت العلاقة بيننا شيئا فشيئا واعتبرتها الأخت التى لم أحظ بها هدية من الله وخاصة أخى الذى أحبها لدرجة الهوس هى ولجين.

- أسامة: عفوا ولكن كيف أنجبت لجين وزوجها عقيم. أعتذر منك لكن...؟!

- روز: هنا يكمن السر، فبعد أن قويت علاقتنا أخبرتنى بكل حكايتها وما مرت به والأهم من كل ذلك أن تلك السيدة تزوجت أخى وهى حامل (هنا كان الخبر الذى هز الجميع وزاد من استغرابهم ودهشتهم وهم ينصتون للحكاية).

فقد صارحت أخى قبل زواجها وكان الحمل ظاهرا عليها وكان هذا من بين الأسباب التى جعلتنى ارفض زواجه بها.

وبعدها قصت لى حكايتها خاصة أننا أصبحنا عائلة واحدة فقد هربت من بلدها والاضطهاد الذى كانت قد عاشته والعذاب الذى رافقها بسبب ذنب لم ترتكبه وحتى زوجها الذى كان سببا فى هروبها لم تلمه إنما الحرب وظلم الرؤساء والأطماع والسياسات كانت السبب فى خراب بيتها وعذاب الاثنين.

ولكن ما كان يقهرها فى كل هذا هو تركها لابنها الوحيد والذى اشعل نار فراقها عنه ولم تنطفئ وبقيت هكذا حتى وفاتها، فهربت إلى الدنمارك خوفا مما سيحصل مستقبلا تاركة فلذة كبدها وراءها كما أنها بقيت متخفية، خوفا من زوجها ومحاولة العثور عليها لأنه ذو نفوذ وعلاقات واسعة.

وأصبحت تتنقل من مدينة لأخرى حتى استقر بها الحال هنا وهكذا أغلقت كل الأبواب على الماضى ورمت مفاتيحها فى بحر عميق وبقى باب واحد لم تستطع إغلاقه وهو اشتياقها لابنها الوحيد وحرقتها عليه حتى يوم وفاتها. وإذا لم تخنى الذاكرة فالفضل كله يرجع إلى صديقتها التى كانت سببا فى إنقاذها وبقى سرها مدفونا.

ترعرعت لجين بيننا كأنها ابنة آدم المدللة وهدية قدمت له، وحظيت بكل الحب والحنان ولو كانت ابنته من صلبه لما أحبها هكذا.

- أسامة (والدموع حبيسة عينيه): وهل تدعى تلك السيدة سلمى؟
- روز (والدموع تنهمر من عينيها وقد فهمت كل شيء): أجل يا عزيزى فقد كنت أتساءل دوما عن سبب مجيئك بينى وبين نفسى بعد أن أوهمتنا بأنك جئت للعمل باعتبار أنك رجل أعمال ولم تذكر والديك أبدا ولو لمرة واحدة فلم أستطع أن أصارحك، وخفت أن تكون مبعوثا من طرف صالح للاستقصاء عن سلمى وابنتها...
- صالح: إذا لجين تكون...؟؟
- روز: أجل لجين هى شقيقة أسامة... جاءت سلمى إلى هنا وهى حامل فى شهرها الثانى ولم تخبر أحدا خوفا من أن يأخذها زوجها منها كما حدث مع أسامة.

واليوم القدر يجمع بينكما وبماذا بنصف رسالة.

لا تستطيع العين أو اللسان ترجمة ما حصل، فالجميع يبكى والأخت فى حضن أخيها لا تصدق ما رأت وسمعت.

أما أسامة فقد كان طريق عذابه كله نهاية أسعد مما كان يتوقع على الرغم من صدمته بوفاة سلمى.

لكن القدر عوضه بأخت لم ينتظرها أبدا تركتها أمه هدية له.

مشهد تعجز كل المعانى عن وصفه وتبقى العين هى الشاهد الوحيد على لقائهما والدموع هى المترجم لكل الأحاسيس المتناقضة بين اللقاء من جهة وفراق أناس لم نحظ بلقائهم فكان الفراق من نوع خاص.

وبعد أن استيقظ الجميع من هذا الحلم أحضر الشقيقان نصفى الرسالة والجميع يترقب ما بداخلها وبدأ أسامة بقراءة نصف رسالته ودموعه كالشلال وبعدها ترك الجزء الثانى لتكمله لجين حيث كانت ممزقة.

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

"إلى من تركت قلبى له ورحلت"

"بعد الصلاة على الحبيب الرسول ماذا أقول لمن فرقتنا الحرب، ابن تمنيت رؤيته رجلا صلبا يكبر أمام عينيّ أجمل وأروع أمنية لأم أنهكها التعب وقست عليها الظروف. إذا قُدر وقرأت هذه الرسالة أو النصف رسالة فلا تلمنى ولا تلون قلبك بكرهى واجعله فقط للعتب من ابن ترك صورة وذكرى رسمها هو وكتب فى سطرها الأخير أم ماتت بقدر من الله والحمد لله رضينا بما كُتب وأنا رضيت حتى يكبر ابنى ويصبح رجلا ويقول حُمّلت أمى ما لا تحمله الجبال وقُيدت أجمل المشاعر بحبال، قسمت الروح بين الضنى وليد أحشائها وبين كرامة وطن أكلت من أرضه ولا عجب وقالت ألقاك ابنى فى الجنة وأفديك بروحى أرض أجدادى ولو حملت بكل الذنب عرا (وهنا بدأت نصف الرسالة الخاصة بلجين واسترسلت بقراءتها وقد أجهشت بالبكاء لما سمعته من أسامة) عراقى أنت من تحملت لأجلك وكانت الكويت بلدا حضنتنى لماذا يا عرب؟ فرقت الحرب الأخ عن أخته حُرم هو من الأم وأنت من الأب وقد كان مثالا للزوج والأب ولكن قُهر بلده ودُمر وحولته الحرب من حمل وديع إلى ذئب أحّبيه يا عزيزتى فوالدك لن يصدق أن له ابنة ثمرة سنوات من الحب والأخ هو الأخ مهما جرى وامتلأ قلبه بالألم والحقد فأنتما من نفس الجذع والصلب هو يحميك بقوته وأنت عوضيه بحنانك وأضيفى حنانى له وضميه وقولى هذا لك من أمى يا من فرقتنا الحرب وأحرقنا اللهب".

وهكذا تلاشت الغيوم وجمعت الرسالة بين الأخوين سرٌ أخفته أم من خوفها على ولديها وكان أملها الوحيد هو لقاءهما، وروت لجين لأسامة عن أمه وحنانها وكيف أنها منعتها من البحث عنه وحتى عند موتها كان آخر اسم نادته هو اسمه، كما أخبرتهم روز بأن سلمى تركت نصف الرسالة ناقصة حتى بعد ولادة لجين أكملتها حين تأكدت من جنس المولود. كانت ليلة من ألف ليلة وليلة رُفع فيها الستار عن كل الأسرار وتحولت الدموع إلى فرح وعُوض صبر أسامة بعائلة لم ينتظرها.

صالح: لكن لا زلت أستغرب كيف أنك يا أحمد... (وقاطعه هذا الأخير مجيبا إياه وقد فهم سؤاله).

- أعرف أنكم مستغربون كيف شككت فى الأمر، فمنذ يومين وأنا متجه للحمام سمعت من غير قصد السيدة روز تخاطب لجين أنها تشك فى أسامة منذ قدومه لهذا الحى لكنها اليوم تشك أكثر سبب اختفاءه وقدومنا أنا وأمى نرجس، وهى تظن أنه مبعوث من طرف صالح حتى يتقصى أمر سلمى فربما التقى بخلود وأخبرته عن مكان تواجدها. كانت تتكلم وهى مرتبكة وعلامات الحيرة والخوف باديان على وجهها.

عندها لا تدركون الصدمة التى تلقيتها وتسللت بعدها فورا إلى الخارج حتى نسيت أمر اختفاء أسامة وبقيت كلمات روز وحدها تجول وتحوم فى ذهني. واليوم انتهزت الفرصة وجعلت من مواجهتى ضربة حظ علها تكشف الحقيقة وأنتم تعرفون البقية.

*****

كان يوما جفت فيه كل الدموع بعد أن تساقطت على قبر سلمى وابنيها يزورانها حاملين ذكريات تحكى لها عن شوقهما إليها.

بعد أن أخذته لجين لقبر والدته حاملين بأيديهما الزهور وقد تمنى أن يقدم لها أروع باقة ويقبل تلك اليدين وينظر لعينيها لتشرح له ما عانته طيلة السنوات الماضية، أحلام بقيت معلقة واليوم تحققت لكن كما أرادها القدر.

واسترسل أسامة فى الحديث مخاطبا قبر أمه، وليس هذا ما كان يتمناه أو يتوقعه لكن لابد من إطفاء حرقة اللقاء بها:

- كانت رحلتى أصعب مما توقعت يا أمى فقدت فيها الأمل وكدت أن أحطم نفسى فى لحظة غضب

ولكن وجدت السند ولن أعود إلى ديارى خالى الوفاض وقد تركت لى أجمل هدية سامحى والدى على كل أحزانك فمن بعدك مرت حياته كلها ندم وحاول جاهدا البحث عنك وكانت كل نظراته الحزينة تتذكر صورتك واسمك دائما تردّده روحه ولو لم تنطقه شفتاه ليموت وقلبه يردد اسمك.

وبعد أن أسدل الستار على الحكاية وكُشف السر، قرر أحمد ونرجس الرحيل والعودة إلى الوطن بعد أن حضرا خطوبة صالح ولجين وبقى اختيار أسامة صعبا فى البقاء مع أخته أو الرحيل إلى وطنه. وهنا اقترح على صالح ولجين الرحيل معه والعيش هناك لكنهما أجلا فكرة الانتقال إلى الكويت حتى بعد زواجهما.

*****

لم يحس أحمد وعزة بأن الليل سينجلى ليترك مكانه لصباح يوم جديد، فقد أخذهما الحديث عن كل ما جرى بعد عودة أسامة وسر اختفاءه، وبعد أن سمعت عزة القصة كلها صدمت بكل هذه الحقائق. وما فاجأها أكثر هو حقيقة وجود لجين والنصف رسالة التى لمت شمل الأخوين.

- أحمد وأنت يا عزيزتى كيف جرت أمورك خلال فترة غيابنا وخطيبك كيف حاله؟ استغربت عدم اتصاله بى طيلة هذه الفترة عندما كنا

نبحث عن أسامة.

- أومأت عزة برأسها وقد تغيّر لون وجهها وملامحها وسكتت للحظة وبعدها بدأت تروى لأحمد كل ما جرى لها.

كعادتها وككل يوم فعزة فى الشركة منشغلة فى مكتبها إلى جانب أخيها وقد قويت برجوعه خاصة وأنه ترك عليها حملا ثقيلا وأرهقتها مسؤولية الشركة ومشاكلها حيث شغلت منصب المدير التنفيذى لفروع الشركة.

وفى غياب أحمد اضطرت لشغل منصبه كمدير مسير للشركة بسبب سفره المفاجئ للبحث عن أسامة وكان الحمل ثقيلا عليها.

كل هذا أرهق عزة فى الآونة الأخيرة وهى الآن تحاول أن تسترجع بعضا من قوتها محاولة العودة إلى حياتها العادية، وفيما هى منهمكة بين الأوراق إذ بها تسمع صوتا يخاطبها.

- لم تتغير يا عزة بالعكس فالعمل بالشركة زاد من قوة شخصيتك وجمالك هكذا عرفتك دائما ولكن للأسف لم أكن مثلك وخذلتك.

لم تصدق عزة بأن هذا صوت أسامة الذى تمنت سماعه منذ زمن طويل.

رفعت رأسها وكانت المفاجأة ولم تتوقع ما رأت أهو حقيقة أم سراب؟

- كيف حالك يا عزة؟ (لم ترد عليه فعاود الحديث): أعرف أنها مفاجأة. ترددت كثيرا فى المجيء لكن فى الأخير قررت مقابلتك لهذا لو سمحت أستأذنك لساعة واحدة خارج المكتب لنتحدث. وكان أسامة قد عاد من الدنمارك مفاجئا عزة التى لم تتصور قدومه ولم يخبرها أحمد بذلك وبقيت صامتة مذهولة لم تنطق ببنت شفة تنظر إليه مستغربة لا تستطيع الرد.

كان الجو ربيعيا جميلا والاثنان ينظران إلى من حولهما شاردى الذهن.

بعد أن وافقت عزة مرافقة أسامة ولكن فى صمت ولم تنطق بحرف واحد. وجلسا فى مكان هادئ بعد أن طلب أسامة عصيرا لكليهما، وبقيا صامتين وكأنهما يلتقيان لأول مرة، بعدها استهل أسامة كلامه وهو متردد وفى لحظة استجمع كل قواه متحدثا إلى عزة.

- أسامة: رجعت إلى هنا لأستعيد ثقتك، أعرف أنك أول الأشخاص الذين ظلمتهم معى وأنت تعرفين الدوافع التى جعلتنى أسافر

صحيح أننى غامرت فى رحلتي، لكن لم أفكر يوما أننى سأغامر بعلاقتنا وحبنا وأنت تعرفين ذلك جيدا حاولت مرارا الاتصال بك لكنك كنت ترفضين ذلك ولم أيأس فى المعاودة لكن كنت مصرة على المقاطعة.

ومرت أيامى فى الدنمارك عذابا لكنها كانت أهون بكثير من تجاهلك لى إلى أن جاء اليوم المشئوم حين أخبرنى أحمد بخطبتك.

لا تعرفين كيف كانت حالتى ولا أستطيع حتى وصف مشاعرى وأنا أتخيّلك مع شخص آخر، وقد ضحيت بكل العهود وأيام الصبا التى كانت بيننا وعرفت حينها أننى قضيت على كل أحلامى التى طالما بنيتها فى مخيّلتى واليوم تتهدم شيئا فشيئا حتى قبل أن أبنيها فى الواقع.

فأصبحت وحيدا بما تحمله الكلمة من معنى وهذا بسبب اندفاعى ورعونتى وليس غصبا عنى كما كنت فى السابق. وبهذا قررت أن أعاقب نفسى بعدم الرجوع للوطن معكم وبينكم إلا أن القدر والأيام غيرتا كل حساباتى وتوالت الصدف الواحدة تلو الأخرى وأنت تعرفين ما جرى بالتفصيل.

أظن أن أحمد حكى لك كل ما جرى لى وفى نفس الوقت أخبرنى هاتفيا بما حدث لك وانفصالك عن خطيبك وأنك لم تودى أن أعرف.

لكن لماذا يا عزة ألهذه الدرجة كرهتني؟ لا أخفيك الأمر فقد فرحت

رغم أنه ليس من شيمى ذلك، لكننى كنت متيقنا أن القدر سيجمعنا مهما طال الزمن.

- عزة: (بعد أن حوّلت نظراتها إلى أسامة): لم أتوقع يوما أننى سأظلم شخصا لأننى ظُلمت من قبل ولكننى ظلمت "جاسم" الشخص الوحيد الذى وقف إلى جانبى بعد أن تركتني.

كان أذكى مما توقعت وحساسا لدرجة أنه وفى كلمتين صارحنى بأنه فهم خوفى عليك وعرف أن حبى لك لم يمت وإنما قبولى عرضه الزواج منى كان هروبا لمحاولة نسيانك، وحادثة اختفائك فى الدنمارك كانت الدليل على بقاء هذا الحب، وبالعكس حسب قول جاسم فهو حب كبير وُلد فى ظروف قاسية واستمر لليوم، فقد لاحظ خوفى وقلقى واتصالى الدائم بأحمد لتحرى أخبارك أيام اختفائك، فقد كنت فى أغلب الأوقات عصبية والحزن مسيطر على وبقى يساندنى إلى يوم أخبرنى أحمد بظهورك، بعدها انسحب بكل هدوء وكان مقررا ذلك من قبل حتى وإن لم يعثروا عليك وفهمت بعدها أننى خسرت كل شيء وكنت راضية بما كتب لي.

- أسامة: وأنا هو الشخص الذى كتبه الله لك.
- عزة: متأسفة يا أسامة لكن فات الوقت وجئت متأخرا يكفى ما حصل لى حتى الآن وأعتذر لأننى لم أهنئك بوجود أختك لجين فرحت كثيرا لأن تعبك لم يذهب سدى. وهمّت بالرحيل لكن أسامة منعها.
- أسامة: أنت قلتها يا عزة لم يذهب تعبى سدى وكان إحساسى فى محله، فقط أردت أن تدعمينى ولكنك رفضت، واليوم فرحتى لن تكتمل إلا بوجودك بجانبى وإلا أقسم لك إننى سأرحل لبلد لن يجدنى فيه أحد عقابا لى على ما فعلت بك. صدقينى سأفعل ذلك وأنت تعرفيننى جيدا.

حينها ابتسمت عزة بعد أن غابت عن وجهها الضحكة لشهور إن لم نقل لسنوات، وجلست تكمل حديثها وقد اشتاقت لكلامه وحنّ هو لمعاتبتها واجتمع الاثنان من جديد تحت سماء واحدة.

*****

بعد سنتين...

قرر صالح ولجين الاستقرار فى الكويت بعد أن رزقا بطفل سمياه "سلام" على اسم خالها.

وعلى إثر هذا الخبر اتفق أسامة وعزة أن يقيما العرس بحضور أخته وصالح.

من جهة أخرى كان رحيل لجين صعبا جدا، فقد تركت سارة وعمتها لوحدهما وما كان يطمئنها هو زواج سارة وعيشها مع عائلتها وبرفقة والدتها حيث كان زوجها رجلا صالحا، وقد رزقهما الله بتوأم.

لكن وعلى الرغم من ذلك فللفراق ألمه ولم يكن الخيار سهلا، فبعدها عن أسامة لسنوات كان كافيا لتعود اليوم ويلتم الشمل خاصة وأن صالح سينقل أعماله مع أسامة وأحمد وكبرت العائلة وجمع الأولاد ما فرقه الآباء.

*****

كانت للحرب مساوئ ومحاسن عشناها ولا نزال. نتمنى فقط أن نكون على الأقل تعلمنا من حكاية أسامة ولجين وما حدث لهما.

لقاء بعد فراق وفرح بعد حزن، وأخيرا دواء لجرح استمر لسنوات.

يكفى فقد كرهنا الحروب ولم نعد نطيق انتظار حدوث المعجزات أو الصدف، فهى تُخلق بعد أن يموت الآلاف بل الملايين وبعد أن يمضى العمر ولا يبقى للفرح مكان ونعيش الحرمان والحرمان.

هذا ما قالته خلود فى وجدانها وهى تنظر للعائلة وقد اجتمعت فى منزل

صالح وسلمى، حينما كانوا يلتقون فى أجمل المناسبات.

ورفعت عيناها للسماء وهى صامتة دموع تسقط على عتبات بيت جمع خلود وسلمى، صداقة لم تمت والدليل أولاد وأحفاد مجتمعون.

وعادت بذاكرتها للماضى أول يوم التقت فيه سلمى وبالمقابل ذلك اليوم الذى رحلت فيه وكان شاهدا على وداعهما.

نظرت للسماء فلمحت وجه سلمى يضحك وأحست بأنها ابتسامة امتنان وشكر لحفظها الأمانة.

وهمست خلود فى خاطرها قائلة "بقى المكان هو وتغيرت الوجوه فقط. رحل الأحباب ورحلت يا عزيزتى أنت وصالح وبقيت ذكراكم فى مخيلتى تملأ جوارحى كلما تذكرتها رافقتنى دمعت مُرة لن تحلو أبدا بغيابكم وداعا أحبائي، وداعا صديقتى أتمنى أن ألقاك فى دار البقاء والله راض عنا وداعا حبيبتى كنت الأخت ولازلت...لازلت...لازلت.